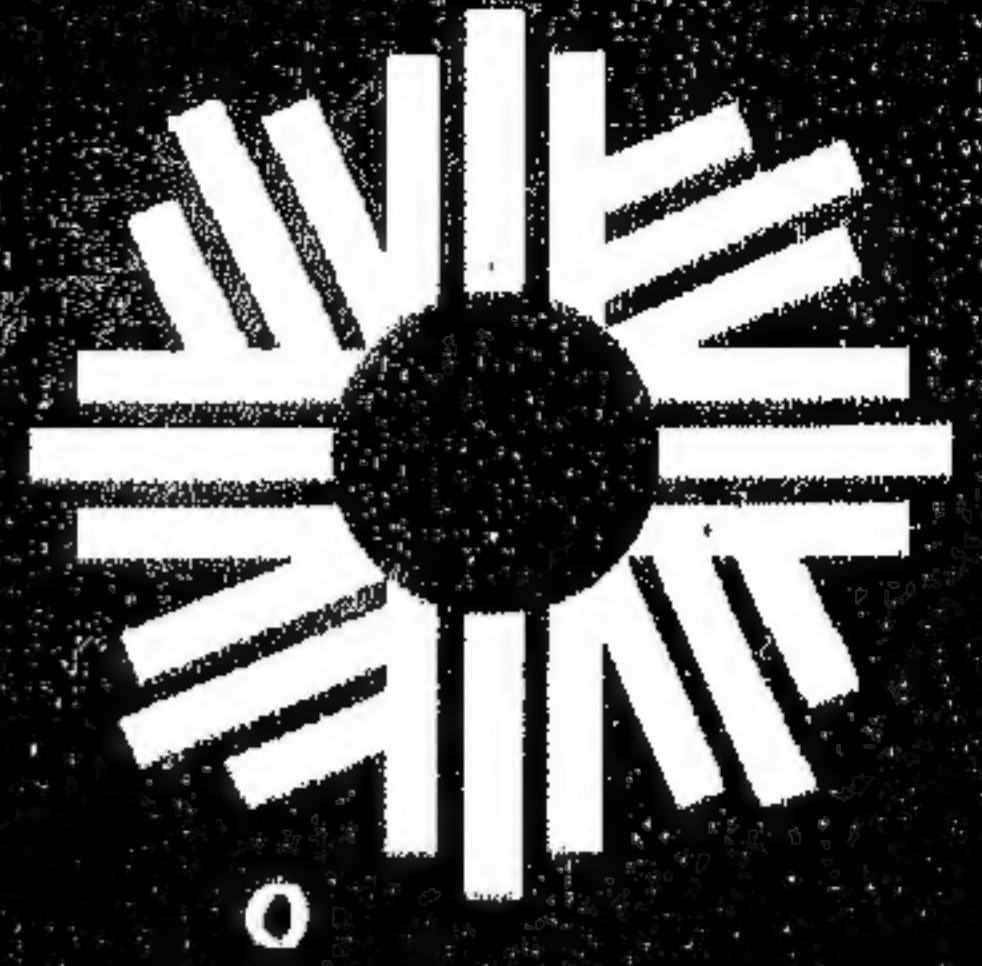
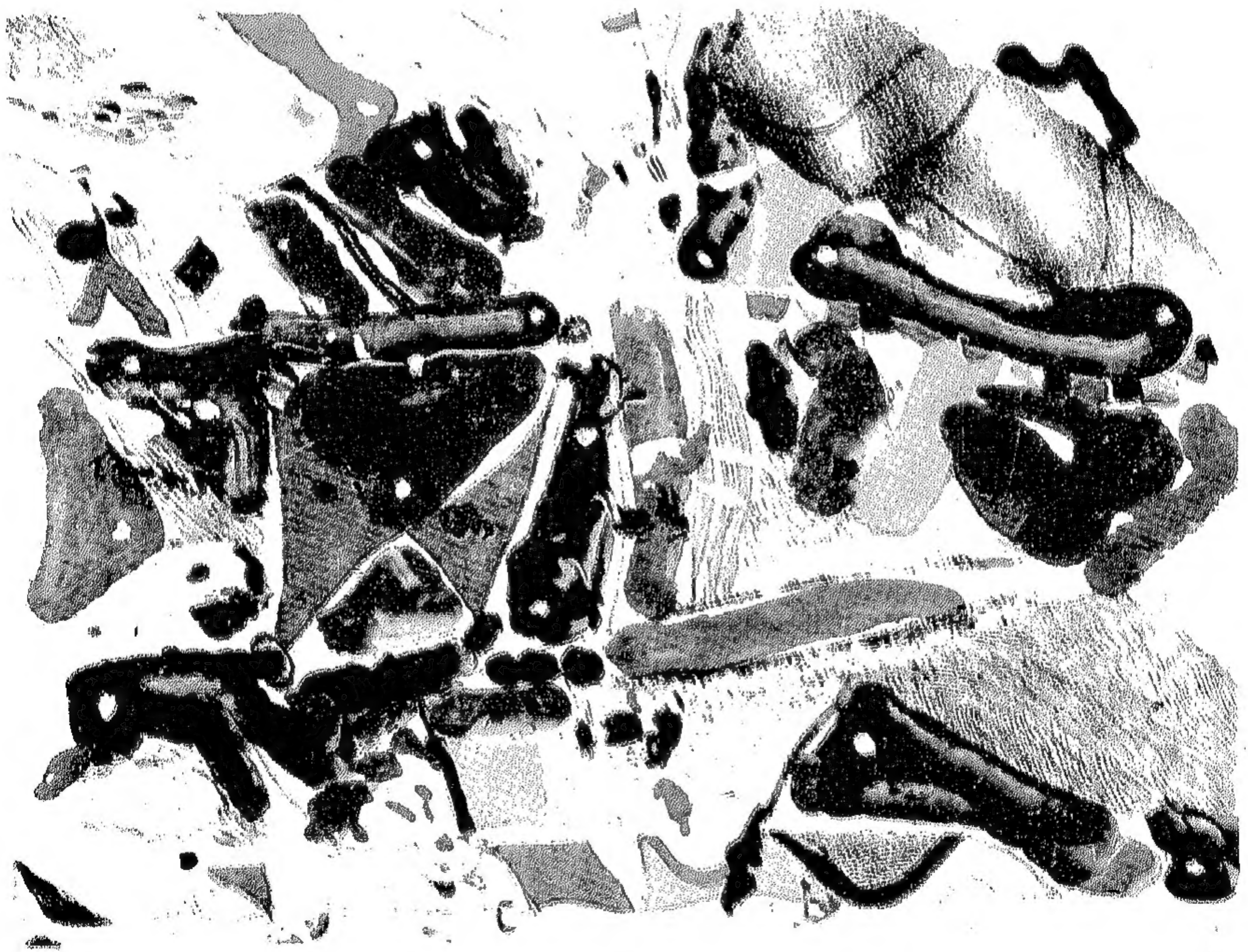


المواجهة



تخليص الأبريز في تخليص باريز < ٣ >



رفاعة رافع الظهطاوي



اهداءات ٢٠٠٢

الشيخ/ محمد العزيز توفيق جاويد

شيخ المترجمين - القاهرة

المواجهة

رفاعة رافع الطمطاوي

تخليص الأبريز في تخليص باريز

(٣)

النويز



مؤسسة المسيرة العلمية للكتاب

١٩٩٣

مكتبة

شيخ المترجمين

عبد العزيز توفيق جاويد

الفصل الثانى

(فى تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج)

حين اجتماعنا فى بيت الأفندية كنا لا نخرج منه ليلا ولا نهارا الا يوم الأحد الذى هو عيد الافرنج بورقة اذن البواب من الضباط الذى نظره علينا الوالى ، ثم بعد (ص ١٤٩) تفرقنا فى المكاتب المسماة « البنسيونات » (١) كنا نخرج أيام البطالة ، وهى يوم الأحد بتمامه ويوم الخميس بعد الدروس ، وأيام أعياد فرنساوية ، ومنا من كان يخرج كل ليلة بعد العشاء ان لم يكن له درس بعده . ولندكر لك هنا « قانون نامة » الذى صنعه (الأفندية) بعد دخولنا فى « البنسيونات » وعبارته :

هذه صورة ترتيب (الأفندية) فى « البنسيونات » .

المادة الأولى : أن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات فى الساعة التاسعة ، ويأتوا الى البيت المركز من أول الأمر ، ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم الى (الأفندى) (النوبتجى) فى هذا الشهر ، لأجل أن يعلم ساعة دخولهم فى البيت ، وبعد ذلك يذهبون الى المواضع المعدة للفرجة ، بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة ، ثم يرجعون الى « البنسيونات » فى أيام الصيف فى الساعة التاسعة ، وفى أيام الشتاء فى الثامنة .

وهذا الترتيب لازم ولا بد ، فان رجع أحد الى « البنسيون » قبل ذلك ، وتعشى هناك ، فهو أولى وأحسن ومن اللوازم أن لا يدور أحد في الأزقة ليلاً ، ومتى دخل في « البنسيونات » يعطى الورقة المذكورة للمعلم .

المادة الثانية : أن من لم يمثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من « البنسيون » بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين .

المادة الثالثة : أن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع، ولا تقبل، حتى يكتبها في ورقة ، ولا تسمع الا من جهة التعليم ، أو من جهة أخرى يحصل له منها ضرر ، ولكن قبل أن يكتب ورقة الشكاية يعرف عنها معلمه مرة ، ثم يكتبها (للنوبتجي) في هذا الشهر .

المادة الرابعة : أن جميع (الأفندية) يمتحنون في آخر كل شهر ، ليعرف ما حصلوه من العلوم في هذا الشهر ، ويسألون عما يحتاجون اليه من الكتب والآلات ، ويكتب في آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الصحيح ، ولأجل هذا ينبغي التفكير في هذا الخصوص ، لأجل تحصيل غرض الوالي .

المادة الخامسة : لو احتاجوا شيئاً من الكتب والآلات في أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ، ومعلمهم يخبر بذلك «مسيو جومار» فان رآه مناسباً يعطيهم ذلك بعد ما يخبر (النوبتجي) فان اشترى أحد شيئاً من غير اجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده .

المادة السادسة : أنه بعد الامتحان بما ذكرنا في المادة الرابعة ان استحق أحد من (الأفندية) الهدية بنجابته تعطى له كتب وآلات وسكة (١) .

(١) يريد النقود . والسكة في الأصل : حديدة منقوشة تضرب عليها الدراهم .

المادة السابعة : فى محل التفرج أو الطريق لا ينبغى لأحد منهم أن يرتكب ما يخل بمروءته وهذا الأمر هو أهم الجميع ، وممنوع أشد المنع .

المادة الثامنة : أن كل الأفندية الذين هم فى « البنسيونات » لا يدخلون فى البيت المركز الا كل خمسة عشر يوما مرة ، وهو يوم الأحد .

المادة التاسعة : أن يوم الأحد الذى لا يأتون فيه الى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين الى مواضع التفرج أو الرياضة أو ما ينبغى رؤيته ، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل ، ان لم يكن عليهم شغل ، فيذهبون مع من ذكر الى المواضع المذكورة .

المادة العاشرة : يتبعون قوانين « البنسيون » كأولاد الفرنساوية بالتدقيق والاهتمام فى غير الأمور المتعلقة بالدين .

المادة الحادية عشرة : (١) اذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر لمخالفته واذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة ، وان كان أحد يتشبهت بأفعال غير لائقة ، وأطواره غير مرضية ، وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حالة ، وتبين عصيانه فمثل ما ذكر الوالى فى القوانين التى أعطاها لنا نتشاور مع المحبين له من أهالى هذه المدينة ، ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا الى مصر من غير شك ولا شبهة .

المادة الثانية عشرة : (٢) أن جميع (الأفندية) يكونون فى « البنسيونات » فى هذا الترتيب على حد سواء ، وان كان فى

(١) فى الأصل (عشر) ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : عشر ، خطأ .

« البنسسيونات » مائدتان احدهما للمعلمين ، والاخرى للتلامذة
(فأفنديتنا) يأكلون مع معلميههم •

المادة الثالثة عشرة : (١) ان (الأفندية) المذكورين يلزمهم
جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز ، وبسبب ذلك أعطينا كل
واحد منهم صورة ذلك •

المادة الرابعة عشرة : كل المواد السابقة هي خلاصة أفكارنا ،
ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا الوالى ، وبناء
على ذلك كل أحد يلزمه أن يتبعه، مع التنبيه لأجل تحصيل رضا
الوالى ، فمن لم يمتثل ، أو تعلل بشيء يجرى عليه ما هو مذكور
فى قانونه •

(١) فى الأصل : عشر ؛ خطأ •

الفصل الثالث

(فى ترغيب الوالى لنا فى الشغل والاجتهاد)

جرت عادته من مدة خروجنا من مصر بأنه كان يبعث لنا « فرمانا » كل عدة أشهر ، يحثنا فيه على تحصيل الفنون والصنائع ، فمن هذه « الفرمانات » ما كان من باب ما يسمى عند العثمانية احياء القلوب مثل الفرمان الآتى ، ومنها ما كان من باب التوبيخ على ما كان يصله منا ويبلغه عنا من بعض الناس حقا أو غير ذلك ، (كفرمان) آخر وصلنا قبل رجوعنا الى مصر القاهرة ، ولنذكر لك هنا (فرمانا) من النوع الأول الذى هو احياء القلوب ، وان كان فيه أيضا شائبة توبيخ لتعلم كيف كان يحثنا على التعليم . وهذه صورة ترجمته :

قدوة الأماثل الكرام (الأفندية) المقيمين فى « باريس »
لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم .

ينهى اليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منا ما حصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئا وأنتم فى مدينة مثل مدينة « باريس » التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنا غما كثيرا ، فيا (أفندية) ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل

واحد منكم يرسل لنا شيئاً من أثمار شغله وآثار مهارته ،
فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة ، وجئتم
الى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون ،
فان ظنكم باطل فعندنا والله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون
ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم اذا جئتم بهذه الكيفية ،
وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للانسان أن يتبصر
فى عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة ، وأن يجنى ثمرة
تعبه ، فبناء على ذلك أنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتكم
أنفسكم للسفاهة ، ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل
لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا فى كسب نظراً وتوجهنا اليكم ،
لتميزوا بين أمثالكم ، فان أردتم أن تكتسبوا رضائنا فكل واحد منكم
لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، وبعد ذلك
كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاه كل شهر ، ويبين زيادة على
ذلك درجته فى الهندسة ، والحساب ، والرسم ، وما بقى عليه فى
خلاص هذه العلوم ، ويكتب فى كل شهر ما تعلمه فى هذا
الشهر زيادة على الشهر السابق ، وان قصرتم فى الاجتهاد
والغيرة فاكتبوا لنا سببه ، وهو اما من عدم اعتنائكم ، أو من
تشويشكم ، وأى تشويش لكم هل هو طبيعى أو عارض ، وحاصل
الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ما عندكم ، وهذا
مطلوبنا منكم ، فاقروا هذا الأمر مجتمعين ، وأفهموا مقصود
هذه الارادة .

قد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر ، فى مجلسنا فى
اسكندرية ، بمنه تعالى : فمتى وصلكم أمرنا هذا فاعملوا بموجبه ،
وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه (خمسة فى ربيع الأول ، سنة ١٢٤٥)
خمس وأربعة بعد الألف والمائتين من الهجرة . انتهت صورة
المكتوب .

ومن وقت هذا المكتوب صرنا نكتب كل شهر جميع ما قرأناه وما تعلمناه في ذلك الشهر . ويكتب تحتها المعلمون أسماءهم ويبعثونه الى الوالى ، فلما تساهل بعض منا فى ذلك كتب « مسيو جومار » الينا جميعا مكاتيب ، ليأمر من كان مواظبا على كتابة هذه الأوراق فى كل شهر أن يدوم على مواظبته ، ويوبخ من تساهل . وهذه صورة ترجمة المكتوب الذى أرسله الى فى هذا المعنى ، ولنذكره كما هو :

باريس ١٥ فى شهر يونية ٢٥ فى شهر محرم سنة ١٢٤٦

الى محبنا العزيز الشيخ رفاعة

لا يخفى عليكم الأمر الوارد من الوالى المتعلق بالأوراق الشهرية ، المشتملة على الدروس التى قرأتموها ، قدم على ما أنت عليه من المواظبة ، وابعث هذه الأوراق فى اليوم الثلاثين كل شهر « لمسيو المهردار أفندى » واطلب منه أوراقا غير مكتوبة ، لتكتبها بعد ذلك ، ومن المعلوم أن هذه الورقة الشهرية لا تأخذ فى كتابتها الا نصف ساعة ، لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التى قرأتها ، ومعرفة نوعها . وليكتب رئيس مدرستك فى كل شهر فى الورقة الشهرية تحت اسمك ، ولا يخفى على اجتهادك ، ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك ، فأطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التى كلفت بها ، واعلم وتيقن بمحبتى لك .

جومار

أحد أرباب ديوان الأنسطينوط

الفصل الرابع

(فى بعض مراسلات بينى وبين بعض من كبار علماء
الفرنساوية غير مسيو جومار)

فمن كاتبين عدة مرات « مسيو دساسى » ولندكر لك بعض
مكاتيبه ، فمنها ما كتبه باللغة العربية ، ومنها ما كتبه باللغة
الفرنساوية .

صورة مكتوب منه :

من الفقير الى رحمة ربه سبحانه وتعالى ، الى المحب العزيز
المكرم ، والأخ المعز المحترم الشيخ الرفيع رفاعة الطهطاوى ،
صانه الله عز وجل من كل مكروه وشر ، وجعله من ذوى العافية
وأصحاب السعادة والخير .

أما بعد : فان القطعة التى أكملت المطالعة فيها من كتابك
النفيس ، وحوادث اقامتك فى باريس رددتها اليك على يد غلامك ،
ويصلك صحبتها حاشية منى على ما تقوله فى باب تصريف الفعل
فى لغتنا الفرنسية ، فاذا نظرت فيها تبين لك صحة ما نستعمله
من صيغة الفعل الماضى ، فمن الواجب عليك أن تصنف كتابا يشتمل
على نحو اللغة الفرنسية المتداولة عند أمم أوروبا كلها وفى
ممالكها ، حتى يهتدى أهل مصر الى موارد تصانيفنا فى فنون العلوم
والصناعات وممالكها ، فانه يعود لك فى بلادك أعظم الفخر ،

ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذكر ، ودمت سالما .

كتبه المحب سلوستري دساسي

صورة مكتوب آخر :

الى حبيبنا الشيخ رفاعه الطهطاوى ، حفظه الله ، وأبقاه .
أما بعد : فانه سيصلك مع هذا ما طلبته منسا من الشهادة
بأننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك . وكل ما أمنت فيه
النظر من أخلاق الفرنساوية وعوائدهم وسياساتهم وقواعد دينهم
وعلومهم وآدابهم وجدناه مليحا مفيدا يروق الناظر فيه ، ويعجب
من وقف عليه . ولا بأس أن تعرض خط يدنا على « مسيو جومار »
وان شاء الله يحصل لك بمصنفك هذا حظوة عند حضرة سعادة
الباشا وينعم عليك بما أنت أهله ودمت على أحسن حال .

محبيك الداعى : سلوستري دساسي الباريزي

وصحبة هذا المكتوب أرسل الى ورقة باللغة الفرنسية
لأطلع عليها « مسيو جومار » وهى بالتقريظ أشبه ، وصورة
ترجمتها .

لما أراد مسيو رفاعه أن أطلع على كتاب سفره باللغة العربية
قرأت هذا التاريخ الا اليسير منه ، فحق لى أن أقول : انه يظهر لى
أن صناعة ترتيبه عظيمة ، وأن منه يفهم اخوانه من أهل بلاده فهما
صحيحا عوائدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعلمية ، ولكن
يشتمل على بعض أوهام اسلامية ومن هذا الكتاب يعرف علم هيئة
العالم وبه يستدل على أن المؤلف جيد النقد ، سليم الفهم ،
غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به الا على
« أهل باريس » والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة
من حالته التى هو عليها، حيث لم يطلع على غير « باريس » وبعض المدن .

وقد حرص (١) فى باب العلوم على ذكر المعلومات توطئة
للتوصل الى المجهولات خصوصا فى نبذته المتعلقة بعلم الحساب ،
وبهيئة الدنيا .

وعبارة هذا الكتاب . فى الغالب واضحة غير متكلف فيها
التنميق ، كما يليق بمسائل هذا الكتاب . وليست دائما صحيحة
بالنسبة لقواعد العربية ، ولعل سبب ذلك أنه استعجل فى
تسويده ، أنه سيصلحه عند تبيضه وفى التكلم على علم الشعر
ذكر استطرادا بعض أشعار عربية أجنبية من موضوع هذا الكتاب ،
على ما يظهر لى . لكنه ربما أعجب ذلك اخوانه من أهل بلاده ، وفى
الكلام على تفضيل الصورة المدورة على غيرها من الأشكال ، ذكر
بعض أشياء قليلة الجدوى فينبغى له حذفها ، وما ذكرت هذه
الأشياء وبينتها هذا التبيين الا للاعلام بأنى دقت النظر فى قراءتى
هذا الكتاب .

وبالجملة فقد بان لى أن مسيو رفاعه أحسن صرف زمنه
مدة اقامته فى فرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن
منها كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعاً فى بلاده ، وقد
شهدت له بذلك عن طيب نفس ، وله عندى منزلة عظيمة ، ومحبة
جسيمة .

البارون سلوسترى دساسى

باريس فى شهر فبراير سنة ١٨٣١ (١٩ فى شعبان سنة
١٢٤٦) .

و (هذه) صورة ترجمة مكتوب كتبه لى قبيل خروجى من
مدينة « باريس » .

(١) فى الأصل (أحرص) تعريف .

بعد اهداء السلام الى مسيو رفاعه ، يحصل لي حظ عظيم
اذا جاء عندي يوم الاثنين الآتى ، والساعة فى ٣ ان أمكنه أن يسرنى
برؤيتى له لحظات لطيفة ، ويحصل لي أيضا غاية الانبساط اذا
بعث لى أخباره بعد وصوله الى القاهرة ، فاذا لم يتيسر لى رؤيته
طلبت له طريق السلامة ، ولا أزال أتذكر دائما آثاره ، وأستنشق
أخباره ، مع انجذاب قلب ، وانشرح صدر .

البارون سلوسترى دساسى

وصورة ما كتبه « مسيو كوسين دى برسوال » مدرس اللغة
العربية المتداولة فى المحاورات ، المشهورة باسم الدارجة عند
العامة ، بدار كتب خانة السلطانية « بباريس » وكنت كتبت له
أن يبعث لى رأيه فى هذه الرحلة ، فكتب هذا الجواب ، وصورته :

حضرة المحب العزيز الأكرم ، الفصيح اللسان والقلم ،
جناب الشيخ رفاعه المجترم ، حفظه الله آمين .

بعد اهدائككم جزيل السلام ، ومزيد التحية والاكرام ، فقد
ورد علينا عزيز مكتوبكم البارحة ، فبادرنا بقضاء حاجتكم ، فواصل
لكم طية تحرير تحتوى على رأينا فى كتاب حوادث سفركم الذى
تفضلتم علينا باطلاعنا عليه ، وبالحقيقة قلنا مثل ما هو اعتقادنا
وشرحنا ما وجدنا فيه من المحاسن . وأما بخصوص المدام فما لقينا
من ذلك شيئا .

وحيث انكم عازمون على السفر فى آخر هذا الشهر ، فالمأمول
من حسن محبتكم أنكم بعد وصولكم بالسلامة الى بلادكم لا تحرمونا
من خاطركم ، وتواصلونا بالاعلام .

بصحتكم ، ونترجاكم أيضا أنه اذا طبع كتابكم تبعثوا (١) لنا منه نسخة ، وبذلك تصيروننا (٢) ممنونين ، ولأفضالكم شاكرين ، والله تعالى يحفظكم والسلام .

محبتكم كوسين دى برسوال

٢٤ شباط سنة ١٨٣١

والمراد بطيه التحرير ورقة شهادته بأنه اطلع على هذا الكتاب ، وقال رأييه فيه . وصورة ترجمة هذه الطية التى كتبها لمسيو جومار باللغة الفرنسية ليخبره برأييه فى هذه الرحلة : قرأت بالتأمل مؤلف الشسيخ رفاعة الملقب بتخليص الابريز فى تلخيص باريز ، فوجدته يتضمن حكاية صغيرة فى سفر المصريين المبعوثين الى فرنسا من طرف وزير مضر الحاج محمد على باشا ، وتشتمل على تخطيط مدينة باريز ، وعلى نبذات موجزة فى جملة فروع من العلوم المطلوبة التعليم من هؤلاء التلامذة . وقد ظهر لى أن هذا التأليف يستحق كثيرا من المدح وأنه مصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالى بلده المؤلف ، فانه أهدى لهم نبذات صحيحة من فنون فرنسا ، وعوائدها ، وأخلاق أهلها ، وسياسة دولتها ، ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوروبا فى العلوم البشرية والفنون النافعة أظهر التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الاسلام ، ويدخل عندهم الرغبة فى المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الافرنجى ، والترقى فى صنائع المعاش ، وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها ، أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليد ذلك . وما نظر فيه فى بعض العبارات يدل فى الغالب على سلامة عقله ، وخلوه من التعسف والتحامل .

(١) الصواب : تبعثون .

(٢) الصواب : تصيروننا .

وعبارة هذا الكتاب بسيطة أى غير متكلف فيها التعميق ،
ومع ذلك فهي لطيفة . وحين كانت نسخة هذا الكتاب بيدي كان
الجزء الذى يتعلق بالعلوم والفنون غير تام ، فما رأيت منه الا نبذة
فى الرياضيات ، وعلم هيئة الدنيا ، ومبادئ أصول الهندسة ،
والجغرافيا الطبيعية ، فهذه النبذات وان كانت موجزة الا أنها
مشبعة .

فيترجى أن المؤلف يدوم على تأليف النبذات الباقية بهذه
المثابة ، واذا اجتمعت هذه النبذات فى الكتاب هذا فانها تكون كتاب
علوم مستقل ، مفتاحا لغيره من العلوم نافعا لأهل العربية ، واذا
فرغ الكتاب بهذه الطريقة فانه يستدل به على رفعة عقل مؤلفه ،
واتساع دائرة معرفته .

كوسين دى برسوال

فاذا قابلت هذا المكتوب مع ما تقدم رأيت أن « مسيو دساسى »
و « مسيو كوسين » اتفقا على حسن هذا الكتاب ، وعلى بساطة
عبارته ، أى عدم التأنق فيها ، وعلى نفعه لأهل مصر .

وانما « مسيو دساسى » عابه بثلاثة أشياء : الأول : اشتماله
على بعض مسائل يعتقد أنها من أوهام الاسلام ، الثانى : جعلنا
ما ينسب لمدينة « باريس » وغيرها من المدن عاما لسائر بلاد
فرنسا ، الثالث : ذكرنا بعض أشياء قليلة الجدوى عند تفضيل
الشكل المدور على غيره من الأشكال .

وأما « مسيو كوسين » فإنه لم يتعرض لما جعله « مسيو دساسى »
من باب الأوهام ، ولما تحدثت معه فى شأن ذلك أجابنى بأنه لم ير
ذلك مضرا ، حيث انى كتبت على ما هو فى اعتقادى ، والا لو تتبععت
ما قاله الا فرنج ، ووافقت آراءهم للحياء أو غيره لكان ذلك محض

مخالفة ، وأما قوله « كمسيو دساي » : ان عبارة في هذا الكتاب بسيطة فمعناه أن تراكييه لم يحاول فيها سلوك طريق البلاغة : يقال عند علماء الفرنسية ، عبارة بسيطة في مقابلة العبارة البليغة .

ولنذكر لك هنا رسالة من شخص كان بيني وبينه محبة أكيدة ، وصورة اجتماعي لهذا الشخص أني دخلت مكتبه لقراءة « الكازيطات » أي الوقائع اليومية ، فتعرفت بهذا الشخص الذي هو (محاسبجي) في وزارة الخزينة المالية ، وأخوه مأمور « دبرطمانه (١) » يعني اقليما من أقاليم الفرنسية ، وهو من بدنة عظيمة ، تسمى : « السلادانية » نسبة الى « سلادان » يعني صلاح الدين يتوهمون أنهم ينتسبون (ص ١٥٧) الى السلطان صلاح الدين الأيوبي ، قائلين : انه يحتمل أن يكون حين محاربته مع الافرنج تسرى بفرنساوية ، فحملت منه ، ثم انطلقت الى بلادها ، فبقى الاسم في أولادها وذرائعها الى الآن . ثم اني كما تعرفت به تعرفت بسائر أقاربه ، ومازلت معهم على الصحبة الأكيدة مدة اقامتي في « باريس » ، فلما سافرت كان عند أخيه المأمور في اقليم الترك في مدينة يقال لها « البى » فأرسل الى هذا المكتوب ، وهذه صورة ترجمته ، مع بعض حذف جائز .

الى حضرة عزيزنا الشيخ رفاعة

قد سلمت أمانتك لابن شيخ المأمورية ، ليعطيها لك ، فانتظرها بعد وصول هذا المكتوب بزمن يسير ، وقد وكلني أخى بأن أخبرك بثنائه عليك على ما صنعتته معه من الجميل في اعارتك له هذه الأمانة ، وأن أهنيك على بلوغك المأمول .

(١) Département أي اقليم .

هل عن قريب تفارقنا لترى وطنك العزيز ؟ فان شاء الله
تجتمع بما تركته فيه من الأقارب والأحباب ، وتجده بخير ، فقد
بلغنى أن سفرك قد قرب جدا ، حتى اننى لا أظن أن أقابلك فى
مدينة « باريس » ولكن لو سافرت قبل هذا الزمن بيسير لاجتمعنا
فى مرسيليا وودعتك فى آخر مدينة من مدن فرنساوية تعبر فيها
فى سفرك ، ولو تأخر سفرك مدة يسيرة لافترقنا فى مدينة
« باريس » التى كان بها أول اجتماعنا ، ولا أدري ان كان التلاقى
مقدرا أم لا ، ولكن تقلبات الدهر كثيرة ، خصوصا للفرنسيج ،
فلا يمكننى أن أجزم بعدم الاجتماع . وبالجمله فلا شك أنك تركت
فى فرنسا صديقا يتذكرك ، ويتأثر لك بما يقع لك من النفع
والضرر ، ويسر غاية المسرة اذا بلغه أنك تحظى فى بلادك بثمرة
فضلك وأوصافك ، وليت شعرى ترجع الى بلادك بأى اعتقاد فى
طبيعة فرنساوية ، وقد رأيت هذه الملة فى وقت ينبغى أن يكون
تاريخا من غرائب سيرها ، وأظن أنك تسأل فى بلادك مرارا عديدة
عن هذه الفتنة العظيمة ، ونصرة فرنساوية فى طلب الحرية .

فاذا وقع اتفاقا أن سفرك توقف مدة أيام فأمولى أن أراك
فى مدينة « باريس » والا فأرجو منك ألا تسافر حتى تودعنى
بلسان القلم بمحبتى لك غاية المحبة . انتهت صورته .

جول سلادان

وهذه صورة مكتوب تفهم منه أيضا رغبة فرنساوية فى
تحصيل الكتب الغربية وترغيبهم للمؤلفين أو المترجمين فى ترجمة
الكتب وتأليفها . وهذه صورة ترجمة هذا المكتوب :

الى مسيو الشيخ رفاعه :

قد حملنى « مسيو دبنغ » أن أسأل عن ترجمتك لكتاب العلوم
الصغير المشتمل على أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم ، لأن

« مسيو دبنغ » مؤلف هذا الكتاب ، فاذا كانت ترجمتك تنطبع في مصر هل (١) يتيسر لمؤلف الأصل أن يقيده اسمه لتحصيل عدة نسخ من نسخ هذا الكتاب بالشراء ، ونعرفك أنك تخبرنا الى أى محل وصلت في الترجمة من المجلد الأول من جغرافية ملطبروف ، فان هذا الجزء الآن يطبع طبعا آخر مصححا مشتملا على زيادات لاتوجد في الأول فلا بأس أن نحيطك به علما ، فانه يكمل طبعة في أثناء هذا الشهر . ومنى اليك مزيد التحية .

محبتك الصادق : رنو

بخزانة الكتب السلطانية بباريس

(١) الصواب : فهل .

الفصل الخامس

(فى ذكر ما قرأته من الكتب فى مدينة ، « باريس » وفى كيفية الامتحانات ، وفيما كتبه لى « مسيو جومار » ، وفيما كتب من خلاصة الامتحان الأخير ، فى الوقائع العلمية ، وأذكر هنا ما قرأته مرتبا بهذا الترتيب ، وان تكرر مع ما سبق)

تعليم أصول نحو اللغة الفرنسية

كان خروجنا من الكرنتينة فى السابع والعشرين من شهر شوال سنة ١٢٤١ ، وبعد أيام قليلة فى مرسيليا ابتدأنا فى التهجى والقراءة ، وبعد نحو أربعين يوما تعلمنا الحروف الفرنسية والتهجى ، ووصلنا « باريس » فى شهر محرم ، فرجعنا ثانياً للابتداء فى أصول الهجاء ، واشتغلنا بذلك نحو شهر ، ثم ابتدأنا جميعا فى قراءة أجرومية « تومند » (١) فى نحو اللغة الفرنسية ، وكان المعلم يضيف إليها من أجرومية أخرى ما يحتاج إليه الحال فلما خرجت من بيت (الأفندية) قرأت مع « مسيو شواليه » أجرومية أخرى ، ومع معلم آخر يسمى « لومورى » (٢) أجروميتين وفى كل من البيتين ، يعنى بيت (الأفندية) وبيت المعلم كنت

(١) Charles — François Thomond : Eléments

وقد كتب اسمه فى المطبوعة (لومند) de la Grammaire française.
(٢) Lomonry.

أستغل بالاعراب النحوى ، والاعراب المنطقى - يعنى تطبيق الكلام على قواعد النحو وقواعد المنطق - وبالإملاء والانشاء والقراءة ، ومازلت على ذلك ثلاث سنوات .

علم التاريخ

ابتدأنا فى بيت (الأفندية) حين كنا معا بكتاب « سير فلاسفة اليونان » فقرأناه ، وتممناه ، ثم ابتدأنا بعده فى كتاب تاريخ عام مختصر مشتمل على سير قدماء المصريين والعراقيين ، وأهل الشام ، واليونان ، وقداماء العجم ، والرومانيين ، والهنود ، وفى آخره نبذة مختصرة فى علم « الميثولوجيا » (١) يعنى علم جاهلية اليونان وخرافاتهم ، ثم قرأت عند « مسيو شواليه » كتابا يسمى : « لطائف التاريخ » (٢) يتضمن قصصا وحكايات ونوادير ، ثم بعده قرأت كتابا يسمى « سير أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم » (٣) ثم تاريخ سبب عظم دولة قيصرية الروم وانقراضها (٤) ثم كتاب رحلة « انخرسيس » الأصغر الى بلاد اليونان (٥) ثم قرأت كتاب « سيغور » (٦) فى التاريخ العام ، ثم سيرة نابليون ، ثم كتابا فى علم التواريخ والأنساب ، ثم كتابا يسمى « بانورما العلم » (٧)

-
- | | |
|--|-----|
| Mythologie. | (١) |
| Les Agrements de L'histoire. | (٢) |
| Les Moeurs des Peuples Leurs habitudes et leur Savoir | (٣) |
| Vivre Par Dipping. | |
| L'Histoire de La Cause de La grandeur et de La | (٤) |
| décadence de L'Empire des Césars Romains, par Montesquieu. | |
| Voyage du très Jeune Anacharsis en Grèce. | (٥) |
| Ségur. | (٦) |
| Panorama du Monde. | (٧) |

يعنى مرآة الدنيا ، ثم رحلة صنفها بعض المسافرين فى بلاد الدولة العثمانية ، ثم رحلة فى بلاد الجزائر .

علم الحساب والهندسة

قرأت فى الحساب « بزوت » (١) ، وفى الهندسة المقالات الأربع الأول من كتاب لوجندره (٢) .

علم الجغرافيا بأنواعها

قرأت مع « مسيو شواليه » كتاب جغرافية يشتمل على الجغرافية التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ، ثم قرأت رسالة أخرى فى الجغرافية الطبيعية مقدمة لقاموس فى الجغرافية ، يعنى معجم البلدان ، ثم قرأت الكتاب الأول بعينه مع معلم آخر غير « مسيو شواليه » ، وقرأت أيضا مع « مسيو شواليه » ، جملا عظيمة من جغرافية « ملطبرون » (٣) ورسالة ألفها التعليم بنته فى هيئة الدنيا ، وقرأت وحدى مؤلفات عديدة فى هذا الفن .

فن الترجمة

ترجمت مدة اقامتى فى فرنسا اثنى عشر كتابا وشذرة يأتى ذكرها فى آخر هذا الكتاب ، يعنى اثنى عشر مترجما بعضها كتب كاملة ، وبعضها نبذات صغيرة الحجم .

كتب فى فنون مختلفة

قرأت كتابا فى علم المنطق الفرنساوى مع « مسيو شواليه »

Etienne Bezout : Traité d'arithmétique.

(١)

Legendre : Eléments de Géométrie.

(٢)

Malte-Brun.

(٣)

و « مسيو المونرى » وعدة مواضع من كتاب « ليبرتروايل » (١) من جملتها المقولات وكتابات أخرى فى المنطق يقال له كتاب « قندلياق » غير (٢) فيه منطق أرسطو .

وقرأت مع « مسيو شواليه » كتابا صغيرا فى المعادن وترجمته .
وقرأت كثيرا من كتب الأدب فمنها مجموعة (٣) « نويل » ومنها عدة مواضع من ديوان « ولتير » (٤) وديوان « رسين » (٥) وديوان « رسو » (٦) خصوصا مراسلاته الفارسية التى يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم ، وهى أشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية ، وقرأت أيضا وحدى مراسلات انكليزية صنفها « القوته شستر فيلد » (٧) لتربية ولده وتعليمه ، وكثيرا من المقامات الفرنساوية ، وبالجمله فقد اطلعت فى آداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة .

وقرأت فى الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب « برماكى » وترجمته وفهمته فهما جيدا ، وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين ، يجعله الافرنج أساسا لأحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية ، وقرأت أيضا مع « مسيو شواليه » جزأين من كتاب يسمى « روح الشرائع » (٨) مؤلفة شهير بين الفرنساوية يقال له « منتسكيو » وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية

La Porte - Royale.	(١)
Condiliac.	(٢)
Noël.	(٣)
Voltaire.	(٤)
Racin.	(٥)
Rousseau : Les Lettres Persanes.	(٦)
Le Comte Chesterfield.	(٧)
L'Esprit des Lois.	(٨)

والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم
بابن خلدون الافرنجى ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا :
« منتسكيو الشرق » أى « منتسكيو الاسلام » وقرأت أيضا فى هذا
المعنى كتابا يسمى « عقد التانس والاجتماع الانسانى » (١) مؤلفه
يقال له « روسو » وهو عظيم فى معناه .

وقرأت فى الفلسفة تاريخ الفلاسفة المتقدم المشتمل على
مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم ، وقرأت عدة محال نفيسة
فى معجم الفلسفة « للخواجه ولتير » وعدة محال فى كتب فلسفة
« قندلياق » (٢) .

وقرأت فى فن الطبيعة رسالة صغيرة مع « مسيو شواليه »
من غير تعرض للعمليات .

وقرأت فى فن العسكرية من كتاب يسمى « علميات ضابطان
عظام » مع « مسيو شواليه » مائة صحيفة ، وترجمتها .

وقرأت كثيرا فى كازيطات العلوم اليومية والشهرية ، وفى
« كازيطات » (٣) السياسيات اليومية التى تذكر كل يوم ما يصل
خبره من الأخبار الداخلية والخارجية المسماة « البوليتيقة » وكنت
متولعا بها غاية التولع وبها استعنت على فهم اللغة الفرنسية
وربما كنت أترجم منها مسائل علمية ، وسياسية ، خصوصا وقت
حراة الدولة العثمانية مع الدولة الموسقوبية .

ولنذكر لك هنا ترجمتنا رسالة فرضية من فرنساوى متطوع
بالخدمة فى معسكر « الموسقو » ، حررها من مدينة « شملا » القريبة

Le Contrat Social.

(١)

Condillac.

(٢)

(٣) أى الصحف .

من جبل « بلقان » الى بعض امراء الألوية بمدينة « باريس » تاريخها
اثنان وعشرون من يولية الافرنجى سنة ١٨٢٨ من الميلاد :

« اعلم يا محبنا أن هذه أول مرة التحم فيها صفنا مع الصفوف
الاسلامية من منذ وصولنا الى العساكر الموسقوبية ، ثم ان سائر
ما رأيته مما يذهل العقول ويحير الألباب ، تقصر عنه العبارة ،
كيف وهو أمر غريب ! بالنسبة الى مثلى ، فلو كنت مثل جنابكم من
العسكر المتمرن على الحروب سافرت فى غزوة مصر ، ورأيت واقعة
أبى قير ، وحصار مدينة عكا لما حار لبي حين رأيت شيئا جديدا
لم أكن عاينته قبل ذلك ، مما يكل عنه الوصف ، ولكن تأمل ياأخى
فى أمرى حيث انى قد كنت فى خفر مليكنا ، وخرجت من مكتب
« سنسير » ولم أحضر من الوقائع الا وقعة الأندلس ، فلم أشعر
الا أن وجدت نفسى قدام جبل « بلقان » بعد أن جبت البرارى
والقفار ، وعاينت المشاق بتهديد أهلها لنا وتخلصهم منا ، وادهاشهم
لجيوشنا ، وانظر فى استعجابى وذهاب صوابى حين خرجت
الفوارس التركية متصافة صفوفا عجيبة للحروب الاسلامية بأعلى
« شملا » وقد وصل الى شريف علمكم من دفتر علم « الموسقو »
تفصيل هذه الواقعة ، وشرح أحوال الجم الغفير من عساكرنا ،
والخبر بأنها صارت ضائعة ، وقد شاهدت بعينى رأسى سوء
ميتة « الميرالاي باردى الموسقوبى » بحالة رديئة ، حيث انقسم
نصفين بضربة مدفع تركية ، ومن الآن فقط ظهرت صعوبة هذه
الحراية ، وطول مدتها لا يعد من الغرابة ، وان كان بعساكرنا
شجاعة وصلابة فى الحروب ، فعساكر الاسلام لها مصادمة قوية
بمعزل عن الهروب . وهذه المصادمة هى التى تستهل الخطر ،
وتتخرق المانع لبلوغ الوطر ، ينتج منها ثمرتان : الأولى : أنها
تلقى الحيرة فى عقول الرجال . والثانية : أن عاقبتها دائما تفرغ
الفرع فى قلوب الأعداء ، ولو كانوا من الأبطال ، ولو شاهدت

عيناك ما شاهدته من أن الفرسان العثمانية تروع (ص ١٦٢)
الانسان بمجرد منظرها المرعب ، وبسرعة اقتحامها المدهش
المعجب ، ومشيتها على صوت الألحان الوحشية ، وصهيل الخيول
الكردية ، ونزولها كالصواعق على المشاة الموسقوبية لحكمت مثلى
بأن هذه الحراية تطول ، وأن اضطرام نارها قل أن يزول . أو ليس
أن للدولة العثمانية فرسانا عظيمة مرتبة بترتيب عجيب ، وهمة
عالية بنظام غريب ؟ أو هل ينكر أحد أن رجالهم متمرنون على ركوب
الخيول ، وأن خيولهم على أصل خلقتهم الوحشية طائعة لسيدها فى
الاقدام والاحجام ، يبلغ عليها فى الحراية المقصود والمرام ؟ فياويح
العساكر القراية التى يلتحم صفها بصف هذه الخيول المركوبة
لهؤلاء الفحول الذين لهم زيادة عن قوتهم الجهادية ، دعامة غيرتهم
الاسلامية والوطنية ، وهذه مزية لا توجد يقيننا فى عساكر
« الموسقو » ، ثم ازدحام الخلائق فى أوقات الحروب له تدير صحيح ،
ولكن فى هذه الواقعة لايجهل انسان ولو كان من « القزاق » أن
الفخر لعساكر الاسلام . وهذا الخبر ربما ظهر لك أنه عجيب من
مثلى ، خصوصا وأنا قد جئت متطوعا فى عسكر « الموسقو » ،
لأشاركهم فى اقتحام الأخطار ، وأقتسم معهم الفخار ، ولكن
لما وصلت الى هنا ظهر لى أن الظن قد خاب ، وأنى قد حدثت عن
الصواب . ورأيت أعداءنا الذين كنا نتهمهم بحقارة الرتبة والرداءة
هم الليوث الضراغم ، ليس لهم شىء من الدناءة ، بل هم أقرب الى
قبول التأدب والظرافة من الافرنج .

واعلم يا أخى أن غيرتى على خلاص الأروام من يد العثمانية
لم تنقص شيئا ، ولكن أقول ليت شعرى ، هل تلزم الغسارة على
اسلامبول فى خلاصهم ؟ أو ليس مما يتحسر عليه أن ما خسراه
فى أخذ مدينة « ابرائل » من العساكر كان يكفى وحده فى فك
أسر الأروام وتحرير رقابهم ، وتقليل سفك دمائنا بعساكر الاسلام .

وقد أسرنا عن قريب أحد ضباط العساكر العثمانية ، وكان شابا
بديع الصورة كثير الجروح ، فعفا عساكرنا عن قتله ولم يكن ذلك
لغيره ، ورقوا لملاحته وجراحته ، فخاطبته باللغة الإيطالية ،
ففهم مقالى وأجاب سـؤالى . وأخبرنى بأن أباه له من العمر الآن
ثمانون سنة ، وله أخوان فى خدمة حسين باشا لا يشك فى نصرة
الدولة العثمانية ، بل يقول : ان الترك يصلون الى موسكو . واعلم
يا أخى أن فى « شملا » نحو مائتى ألف محارب ، ويتجدد
عليها كل يوم ، وسلطانهم بكل عظيم عن يقين . وها أنا الآن
أطوى لك كتابى لأضع قدمى فى ركابى ، فالآن عساكر الأعداء
تحارب فى طبيعة جيشنا ، وأنا بين دوى ألحان الترك ، وعجيج
أصوات الروس غريق ، وهذه حراة مهولة ان نظرت بعين التحقيق .

الفصل السادس

(فى الامتحانات التى صنعت معى فى مدينة « باريس »
خصوصا فى الامتحان الأخير الذى أعقبه رجوعى الى مصر)

اعلم أن من عادة الفرنساوية أن لا يكتفوا فى العلم بمجرد شهرة الانسان بالفهم ، أو الاجتهاد ، أو بمدح المعلم فى المتعلم ، بل لابد عندهم من أدلة واضحة محسوسة تقيّد الحاضرين فى الامتحان قوة الانسان والفرق بينه وبين أمثاله . وهذا انما يكون بالامتحانات العامة يحضرها العام والخاص ، بدعوة مثل دعوة الولاثم عادة . وهناك امتحانات خاصة ، وهى أن يمتحن المعلم تلامذته كل أسبوع أو شهر ، ليعلم قوة زيادتهم فى ذلك الأسبوع أو الشهر . وليكتب مفاد ذلك الى آبائهم ، فكنا فى البنسيونات بهذه المثابة ، وكل سنة يصنع معنا الامتحان العام بحضور أعيان الفرنساوية .

فأول بحث صنع معنا كان أغلبه ومداره على اللغة الفرنساوية ، وقد جرت العادة عندهم بأنهم يعطون هدية امتحان للبارعين فى الجواب المتميزين عن غيرهم ، ففى أول امتحان عام بعث لى « مسيو جومار » كتابا يسمى « رحلة أنخرسيس فى بلاد اليونان » سبعة مجلدات جيدة التجليد مموهة بالذهب ، يصحبها هذا المکتوب الذى صورته مترجما :

أول يوم من شهر أغسطس سنة ١٨٢٧ من الميلاد .

قد صرت مستحقا لهدية اللغة الفرنسية ، بالتقدم الذى حصلته فيها ، وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العام الأخير . ولقد حق لى أن أهنيء نفسى بإرسالى لك هذه الهدية من طرف (الأفندية) .
النظار دليلا على التفاتك فى التعليم ، ولا شك أن الوالى يسر متى أخبر أن اجتهادك وثمره تعلمك يكافئان المصاريف العظيمة التى يصرفها عليك فى تربيتك وتعليمك ، وعليك منى السلام مصحوبا بالموودة .

وقوله فى الامتحان الأخير المراد أنه آخر بالنسبة لما قبله من الامتحانات الخصوصية .

وهدية الامتحان تشبه أن تكون مثل جائزة الشعراء : أو هى كقصب السبق وفى الامتحان العام الثانى بعث لى كتاب « الأنيس المفيد ، للطالب المستفيد » ، و « جامع الشذور ، من منظوم ومنثور » تأليف « مسيو دسباسى » وصحبته هذا المكتوب ، وصورته مترجمسا .

باريس ١٥ شهر مارث سنة ١٨٢٨ من الميلاد .

قد صرت مستحقا لهدية النحو الفرنسية ، بالتقدم الذى حصلته فى هذه اللغة ، وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العام الأخير ، ولقد سرنى أنك صرت مستحقا أن أبعث لك علامة السرور منك ، تشويقا لك ، وها أنا باعث جدول امتحانك للوالى باجتهادك وفلاحك ، ولا شك أنه يسر بأنك تشتغل مع ثمرة ، وأنت أهل لرعايته لك واعتناؤه بتربيتك وتعليمك ، وعليك منى السلام .

وفى هذين الامتحانين أخذت هدية الامتحان .

وأما صورة الامتحان الأخير الذى به رجعت الى مصر أن « مسيو جومار » جمع مجلسا فيه عدة أناس مشاهير ، ومن جملتهم وزير التعليمات الموسقوبى رئيس الامتحان ، وكان القصد بهذا

المجلس معرفة قوة الفقير في صناعة الترجمة التي اشتغلت بها
مدة مكثى في فرنسا .

وصورة ما تحصل من الامتحان وكتبه الفرنساوية في وقائع
العلوم ما نصه : وصور التلميذ رفاة أنه قرىء في المجلس
دفتران : الدفتر الأول يشتمل على تعديد اثنتى عشرة ترجمة من
اللغة الفرنساوية الى العربية ترجمها المذكور منذ سنة وهذه
أسمائها :

الأول : نبذة في تاريخ اسكندر الأكبر ، مأخوذة من تاريخ
القدماء . الثانى : كتاب أصول المعادن . الثالث : رزنامة سنة ١٢٤٤
من الهجرة ، ألفه « مسيو جومار » لاستعمال مصر والشام ،
متضمنا لشذرات علمية وتدييرية . الرابع : كتاب دائرة العلوم في
أخلاق الأمم وعوائدهم . الخامس : مقدمة جغرافية طبيعية مصححة
على « مسيو هنبليز » . السادس : قطعة من كتاب ملطبرون (١) في
الجغرافية . السابع : ثلاث مقالات من كتاب « لجندر (٢) » في
علم الهندسة . الثامن : نبذة في علم هيئة الدنيا . التاسع : قطعة
من « علميات ضابطان عظام » العاشر : أصول الحقوق الطبيعية
التي تعتبرها الافرنج أصلا لأحكامهم . الحادى عشر : نبذة في
« الميثولوجيا » يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم . الثانى عشر :
نبذة في علم سياسات الصحة .

الدفتر الثانى : يشتمل على رحلته ، وذكر سفره ثم
أحضر له عدة تآليف مطبوعة فى بولاق ، فترجم منها مواضع
بسرعة الى اللغة الفرنساوية ، ثم قرأ بالفرنساوية مواضع
منها ما هو صغير ومنها ما هو كبير فى « كازيطة » مصر المطبوعة فى

Malt-Brun.

(١)

Legendre.

(٢)

بولاق ، ثم بحث معه في ترجمة العمليات العسكرية المترجمه
 له فكان بعض الحاضرين بيده الأصل الفرنسي ، والشيخ بيده
 الترجمة ، ثم انه يترجم العربية بالسرعة الى الفرنسية قراءة
 لا كتابة ، ليقابل عبارة الترجمة مع عبارة الأصل ، وقد تخلص على
 وجه حسن من هذا الامتحان فأدى العبارات حقها من غير تغيير في
 معنى الأصل المترجم ، ولكن ربما أحوج اصطلاح اللغات العربية
 أن يضع مجازا بدل مجاز آخر من غير خلل في المعنى المراد ، مثلاً :
 في تشبيه أصل علم العسكرية بمعدن مشبع يستخرج منه كذا
 غير العبارة بقوله : العسكرية بحر عظيم تستخرج منه الدرر ،
 وقد اعترض عليه في الامتحان بأنه بعض الأحيان قد لا يكون في
 ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وأنه ربما كرر ،
 وربما ترجم الجملة بجملة ، والكلمة بكلمة ، ولكن من غير أن يقع
 في الخلط ، بل هو دائماً محافظ على روح المعنى الأصلي ، وقد عرف
 الشيخ الآن أنه اذا أراد أن يترجم كتب علوم فلا بد أن يترك التقطيع ،
 وعليه أن يخترع عند الحاجة تغييرا مناسباً للمقصود ، وقد امتحن
 في كتاب آخر ، وهو مقدمة القاموس العام المتعلقة بالجغرافيا
 الطبيعية ، وهذا الكتاب ترجمه هو الى العربية ولما كان وقت ترجمة
 هذا الكتاب لم يصل الى درجته الآن في اللغة الفرنسية ، كانت
 ترجمته دون ترجمة الكتاب الذي بحث معه فيه قبله ، وكان عيبه
 أنه لم يحافظ على تأدية عبارة الأصل بجميع أطرافها . وعلى كل
 حال فلم يغير في المعنى شيئاً ، بل طريقته في الترجمة كانت
 مناسبة ، فتفرق أهل المجلس جازمين بتقدم التلميذ المذكور ،
 ومجمعين على أنه يمكنه أن ينفع في دولته ، بأن يترجم الكتب المهمة
 المحتاج اليها في نشر العلوم ، والمرغوب في تكثيرها في البلاد
 المتمدنة ، ولا شك أن بعض هذه الكتب قد يحتوى على أشكال ،
 وأحمد أفندي العطار من أهل بلاده يشتغل بالطباعة على الأحجار

لأجل ذلك ، وقد كان حاضرا في المجلس ، فقدم لأهل المجلس عدة عينات مطبوعة بيده على الحجر من تصوير وكتابة عربية وفرنساوية ، وقد ابتدأ في معرفة تسيير الشوكة للنقش والقلم للكتابة ، وقلم الشعر لكتابة التصوير ، وفي تصويراته توجد حيوانات (ص ١٦٦) وأمور عمارات وغير ذلك من الأمور المصنوعة بالخطوط من غير ظل ، ولكنه جاء في فرنسا كبير السن فلم يمكنه أن يصور تصويرا صحيحا خاليا عن جميع العيوب ، ولكن يمكنه أن يعرف معرفة تامة طريق الطباعة على الحجر علما وعملا ، وينسخ (عينات) التصوير التي تعطى له ويطبعا بنفسه عند الحاجة ، ويمكنه أن يتأهل لفتح دار لطباعة الحجر ونظارتها ، وقد ترجم مختصرا في صناعة الطباعة بالحجر وكتبها على الحجر وطبعها بيده ، وكانت نسخة منها موضوعة على (باش تختة (١)) « مسيو جومار » انتهى كلام « كازيطة » دائرة العلوم .

وكتب لي مكتوب تهنئة برجوعي الى مصر بعد تحصيل المرام غير أن هذا المكتوب قد ضاع مني وكان لا بأس بذكره هنا وصورة ترجمة ما كتبه لي « مسيو شواليه » وهو أشبهه بأجازة وشهادة لي :

وزارة الحرب

يقول الواضع اسمه فيه : « شواليه » تلميذ قديم من تلامذة مدرسة العلوم المسماة « بلوتكنيكا » (٢) الضابط المهندس المكتوب في وزارة الحرب الوكيل من طرف « مسيو جومار » والأفندية النظر بالارشاد الى تعليم مسيو الشيخ رفاعة :

أشهد أنني مدة نحو الثلاث سنوات ونصف التي مكثها التلميذ

(١) منضد صغير ذو أدراج عدة .

(٢) مدرسة المهندسين : L'Ecole Polytechnique

المذكور عندي لم أر منه الا أسباب الرضى سواء فى تعليمه أو فى سلوكه المملوء من الحكمة والاحتراى ، وحسن خلقه ولين عريكته ، وقد قرأ معى فى السنة الأولى اللغة الفرنسية «والقسمغرافيا» (١) انتهى وفيما بعدها الجغرافيا والتاريخ والحساب وغير ذلك . ولما كان خاليا عن الاستعداد والخفة اللازمين لتعلم الرسم مع ثمره ، لم يشتغل به الا مرة فى كل أسبوع لمجرد امتثال أوامر الوالى ولكن صرف جهده مع غاية البغرة فى الترجمة التى هى صنعته المختارة له وأشغاله فيها مبينة فى اعلاماتى الشهرية ، خصوصا فى « الجرنالات » الأولى التى أعطيتها « لمسيو جومار » وحسب هذا التلميذ ما فى هذه الاعلامات والجرنالات .

ومما ينبغى التنبيه عليه أن غيرة مسيو الشيخ رفاعة تناهت به الى أن أدته الى أن شغله مدة طويلة فى الليل تسبب عنه ضعف فى عينه اليسار ، حتى احتاج الى الحكيم الذى نهاه عن مطالعة الليل ، ولكن لم يمثل لخوف تعويق تقدمه ، لما رأى أن الأحسن فى اسراع تعليمه أن يشتري الكتب اللازمة له غير ما سمح به (الميرى) وأن يأخذ معلما (ص ١٦٧) آخر غير معلم (الميرى) أنفق جزءا عظيما من ماهيته المعدة له فى شراء كتب ، وفى معلم مكث معه أكثر من سنة ، وكان يعطيه الدرس فى الحصص التى لا يقرأ معى فيها .

وقد ظننت أنه يجب على وقت سفره أن أعطيه هذا الاعلام الموافق لما فى الواقع ونفس الأمر ، وأن أضيف الى ذلك الافصاح عما فى ضميرى من كمال اعتقاد فضله ومحبته .

مسيو شواليه

٢٨ فى شهر فبراير سنة ١٨٣١

(١) L. Cosmogsaphier. علم الفلك .

المقالة الخامسة

(فى ذكر ما وقع من الفتنة فى فرنسا ، وعزل الملك قبل رجوعنا الى مصر ، وانما ذكرنا هذه المقالة لأنها تعد عند الفرنساوية من أطيب أزمانهم وأشهرها ، بل ربما كانت عندهم تاريخا يؤرخ منه) :

الفصل الأول

(فى ذكر مقدمة يتوقف عليها ادراك علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم) .

اعلم أن هذه الطائفة متفرقة فى الراى فرقتين أصليتين . وهما : الملكية والحرية . والمراد بالملكية أتباع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر ، من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشئ . والأخرى تميل الى الحرية ، بمعنى أنهم يقولون : لا ينبغى النظر الا الى القوانين فقط ، والملك انما هو منفذ للأحكام على طبق ما فى القوانين ، فكأنه عبارة عن آلة ، ولاشك أن الرايين متباينان ، فلذلك كان لا اتحاد بين أهل فرنسا ، لفقد الاتفاق فى الراى . والملكية أكثرهم من القسوس وأتباعهم ، وأكثر الحربين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية ، فالفرقة الأولى تحاول اعانة الملك ، والأخرى ضعفه واعانة الرعية . ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ، ولا حاجة الى ملك أصلا . ولكن لما كانت الرعية لاتصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ،

ويجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا هو حكم الجمهورية
ويقال للكبار : مشايخ وجمهور .

وشريعة الاسلام التي عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة
بالأنواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها ،
فعلم من هذا أن بعض الفرنسيات يريد المملكة المطلقة ، وبعضهم
يريد المملكة المقيدة بالعمل بما في القوانين، وبعضهم يريد الجمهورية،
وقد سبق للفرنسيات أنهم قاموا سنة ١٧٩٠ من الميلاد وحكموا
على ملكهم وزوجته بالقتل ، ثم صنعوا جمهورية ، وأخرجوا
العائلة السلطانية المسماة « البربون » من مدينة « باريس » وأشهرهم
مثل الأعداء ولا زالت الفتنة باقية الأثر الى سنة ١٨١٠ ميلادية ، ثم
تسلطن « بوناپارته » المسمى : « نابليون » وتلقب بسلطان سلاطين :
ثم لما كثرت محارباته ، وكثر أخذه للممالك وخيف بأسه وبطشه
تعاهد عليه ملوك الافرنج ، ليخرجوه من المملكة ، فأخرجوه منها ،
مع محبة الفرنسيات له ، وأعادوا البربون الى محلهم رغما عن أنف
الملكة الفرنسيات ، فكان أول من تسلطن منهم « لويز الثامن عشر »
ولأجل ترغيب الناس في حكمه وتمكين ملكه صنع قانونا بينه وبين
الفرنسيات بمشورتهم ورضائهم ، وألزم نفسه أن يتبعه ولا يخرج
عنه ، وهو الشرطة، وقد ذكرناها مترجمة في باب سياسة الفرنسيات،
ولاشك أن وعد الكريم ألزم من دين الغريم . وقد جعل هذا القانون
له ولئن بعده من ورثة مملكة الفرنسيات ، وأنه لايزاد فيه ولا ينقص
الا اذا اتفق عليه الملك وديوان « البير » وديوان وكلاء الرعية ، فلا بد
من الديوانين والملك ، ويقال انه صنع ذلك على غير مراد أهله وأقاربه،
وهم يحبون التصرف المطلق في الرعية ، ويقال : انهم تعصبوا عليه ،
وكان رئيس العصابة أخاه « كرلوس العاشر » حتى انه اطلع على
ما أخفاه له فأبطله ، : ويقال ان « كرلوس العاشر » أراد في « كبرلويز
الثامن عشر » أن ينقض ذلك القانون ، ويرجع الى طريق اطلاق

التصرف ، فلم يمكنه ذلك ، ثم بعد موت أخيه أظهر « كرلوس » الحيلة . وأبطل ما كان نواه ، وأظهر أنه لا يريد شيئاً من ذلك ، وجوز لكل انسان أن يبدي في الكازيطات رأيه بالكتابة من غير أن ينظر فيه قبل طبعه وإظهاره فصدق الناس كلامه واعتقدوا أنه لا يخلف وعده ، بل فرحت سائر الرعية بتدبيره ومشيه على القوانين ، ثم انه انتهى أمره الى أن هتك القوانين التي هي شرائع الفرنساوية وخالفها ، وقبل هتكه للشريعة بانت منه أمارات ذلك بمجرد تقليده الوزارة للوزير : « بولنياق » وهو معلوم المذهب والتدبير ، يعنى أنه يميل الى كون الأمر لا يكون الا للملك ، ويقال : ان هذا الوزير هو ابن زنا ، زنت أمه بهذا الملك ، فولدته منه ، فهو فى الحقيقة أبوه ، وشهير بالظلم والجور ومن الحكم التي فى غاية الشيوخ : أن ظلم الاتباع مضاف الى المتبوع . وفى الحديث : من سل سيف الجور سل عليه سيف الغلبة . ولازمه الهم . وقال الشاعر :

من أنصف الناس ، ولم ينتصف
ومن يرد انصافه مثل ما
ومن يرد انصافه ، وهو لا
بفضله منهم فذاك الأمير
أنصف ، أضحى ماله من نظير
ينصفهم فهو الدنىء الحقير
ولما كان هذا الوزير سابقاً « ايلجيا » ببلاد الانكليز من طرف
الفرنساوية ، يعنى رسولا للمصالح بين الدولتين ، كانت الفرنسية
تنسب اليه كل ما خالف مذهب الحرية . وكلما شاع عنه أنه راجع
الى فرنسا يظن جميع الناس أنه لا يأتى الا ليتقلد منصب الوزارة
ويغير القوانين ، فلذلك كان يبعثه سائر أرباب الحرية وأغلب
الرعية . وقد عرف الفرنسية من قبل أن اختياريه للوزارة كان
مقصودا لهم ، وقد حصل بعد توليته بنحو سنة .

وقد قلنا فيما سبق : ان ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء
الرعية يجتمعون كل سنة للمشورة العمومية . فلما اجتمع هذا
الديوان عرضوا على الملك أن يعزل هذا الوزير ومن معه من الوزراء

الستة ، فلم يصنع لكلامهم أصلا ، وقد جرت العادة أن ديوان المشورة يعمل فيه جميع الأشياء بمقالة أكثر أربابه ، وكان المجتمع في هذا الديوان للمشورة في قضية الوزراء أربعمائة وثلاثون نفسا ، منها ثلثمائة لا يرضون بإبقاء الوزراء ، ومنهم مائة وثلاثون يحبون إبقاءهم ، فكان العدد الأكثر عليهم ، والعدد الأقل لهم ، فتيقنوا عزلهم ، وكان الملك يحب إبقاءهم ، لاستعانتهم بهم على تنفيذ ما أضمره في نفسه فأبقاهم ، ثم خرم القانون بعدة أوامر ملكية فكانت عاقبتها خروجهم وإخراجهم له من بلادهم معزولا ، فهو كما قال الشاعر :

لم يدر مايجنى عليه القول	ولا لماذا أمره يؤول
يلقى الكلام كيف ما ألقاه	لم يحسن الفكرة في عقباه
وهكذا التهوير في المقال	وصحبة الأشرار والجهال
يخفضك الجاهل أنى رفعتك	يرديك وهو زاعم أن ينفعك

الفصل الثانى

(فى ذكر التغيرات التى حصلت وما ترتب عليها من الفتنة)

قد سبق لنا من القوانين السالفة فى الكلام على حقوق
الفرنساوية فى المادة الثامنة أنه لا يمنع انسان فى فرنسا من
أن يظهر رأيه ، ويكتبه ويطبعه ، بشرط أن لا يضر ما فى القوانين ،
فان أضر به أزيل ، فلما كانت سنة ١٨٣٠ ، واذا بالملك قد أظهر
عدة أوامر ، منها : النهى عن أن يظهر الانسان رأيه ، وأن يكتبه
أو يطبعه بشروط معينة ، خصوصا « للكازيطات » اليومية ، فانه
لا بد فى طبعها من أن يطلع عليها أحد من طرف الدولة ، فلا يظهر
منها الا ما يريد اظهاره ، مع أن ذلك ليس حق الملك وحده ، فكان
لا يمكنه عمله الا بقانون ، والقانون لا يصنع الا باجماع آراء ثلاثة :
رأى الملك ورأى أهل ديوانى المشورة يعنى ديوان البير ، وديوان
رسل العملات ، فصنع وحده مالا ينفذ الا اذا كان صنعه مع غيره ،
وغير أيضا فى هذه الأوامر شيئا فى مجمع اختيار رسل العملات ،
يعنى فى الذين يختارون رسل العملات لبيعثوها فى « باريس »
وفتح ديوان العملات قبل أن يجتمع مع أنه كان حقه ألا يفتحه الا بعد
اجتماعهم كما فعله فى المرة السابقة ، وهذا كله على خلاف القوانين .
ثم ان الملك لما أظهر هذه الأوامر كأنه أحسن فى نفسه بحصول
مخالفه ، فأعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بأنهم
أعداء للحرية ، التى هى مقصد رعية فرنساوية ، وقد ظهرت هذه

الأوامر بغتة حتى ظهر أن الفرنسية كانوا غير مستعدين لها ،
وبمجرد حصول هذه الأوامر قال غالب العارفين بالسياسيات : انه
يحصل فى المدينة محنة عظيمة يترتب عليها ما يترتب - كما قال
الشاعر :

أرى بين الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فان النار بالعيدان تذكو وان الحرب أولها الكلام
ففى مساء اليوم الذى ظهرت فيه هذه الأوامر فى « الكازيطات »
أخذ الناس فى الحركة بقرب المحل المسمى بالروايل « يعنى »
السراية السلطانية التى سكنها عائلة أقارب الملك المسماة « عائلة
أورليان » التى منها الملك الآن ، وهذا الوقت ظهر الغم على وجوه
الناس ، وكان هذا يوم السادس والعشرين فى شهر يولية ، وفى
يوم السابع والعشرين منه لم يظهر غالب « كازيطات » الحرية لعدم
رضائهم بالشروط ، فلذلك بلغت الأوامر جميع الناس
وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور « الكازيطات » التى من
عادتها أنها لا تفر عن الظهور الا لهم عظيم ، فأغلقت « الورشات »
والمعامل (والفبريقات) والمدارس ، فظهر بعض كازيطات الحرية
آمرة بعصيان الملك والخروج عن طاعته ، ومعددة لمساويه وفرقت
على الناس من غير مقابل ، وبهذه الديار ، بل وفى غيرها قد يبلغ
الكلام ، حيث تقصر السهام . خصوصا مادة الخطات ، فانها قوية
وخصوصا بلاغة الانشاء ، فلها مدخلة عظيمة كما قيل : ان نزل
الوحى على قوم بعد الأنبياء نزل على بلغاء الكتاب ! خصوصا اذا كان
ما يذكر فى تلك اليوميات مقبولا عند العامة ، ومقصودا عند
الخاصة ، فان هذا هو عين البلاغة الصحيحة ، اذ هى ما فهمته
العامة ، ورضيت به الخاصة ، فلما سمع بذلك ولاية الحسبة حضروا
فى المحال العامة ، ومنعوا الناس من قراءة هذه « الكازيطات » ،
وحاصروا مطابعها ، وهموا بكسر آلات الطباعة ، وكسروا بعضها ،

وحبسوا من اتهموه من الطباعين ، (وبهدلوا) كثيرا ممن أظهر شيئا مخالفا لترتيب الملك من الرعية ، وهذا أيضا مما قوى غضب الفرنسيات ، فكتب أرباب هذه الكازيطات يعنى رؤساء الفرنسيات الذين هم يكتبون فيها آراءهم « ورقة انكار » وأشهروها وعددوا نسخها ، ولصقوها بجدران المدينة وأمرؤا فيها الرعية بالحرب ، وعينوا محله ، وكان الميعاد فى درب « سراية باليروايل » (١) فازدحم فيه كثير من الأمم ، وفيما جوله من الحارات ، فكانت العساكر السلطانية تحاول تفريق هذا الازدحام ، فعظم دوى الرعية ، وكثرت أصواتهم ، وظهر غضبهم فى سائر الدروب والحارات ، فهجم العسكر على الرعية ، والتحم القتال بين الفريقين ، فكانت الرعية تقاتل أولا بالأحجار ، والعساكر بالسيوف وآلات الحرب ، فكثر القتال وعظمت المطاردة من الجانبين ، ثم بحث الرعية عن آلات الحرب ، وظهر صوت البارود من الجانبين ، فى مدينة « باريس » فكانما لسان حال الفرنسيات الذى هو أصدق من لسان مقالهم جعل يقول :

★ ان بنى عمك فيهم رماح ★

فعظم القتال وكان أكثر المقتول والمجروح من الرعية ، كما قال الشاعر :

فالحرب تنكح ، والنفوس مهورها
مابين أبكار تزف وعيون
وترى الدماء على الجراح طوافيا
وكأنها رمد بنجل عيون

فاشتد غضبهم ، وعرضوا القتلى فى المحال العامة ، لتحريض
الناس على القتال ، واطهار عيوب العساكر . وقامت أنفس الناس
على ملكهم ، لاعتقادهم أنه أمر بالقتال ، فما مرت بهذا الوقت
بحارة الا وسمعت فيها : السلاح ! السلاح ، أدام الله الشرطة ،
وقطع دابر الملك ! فمن هذا الوقت كثر سفك الدماء ، وأخذت الرعية
الأسلحة من السيوفية بشراء أو غضب . وأغلب العملة والصنائعية
خصوصا الطباعين هجموا على (القرقولات) وخانات العساكر ،
وأخذوا منها السلاح والبارود ، وقتلوا من فيها من العساكر ،
وخلع الناس شعار الملك من الحوانيت والمحال العامة ، وشعار ملك
الفرنسيين هي صورة « زهر للزنبق » ، كما أن شعار ملك
الاسلام « صورة هلال » وملك الموسسقية « صورة عقاب » ،
وكسروا قناديل الحارات وقلعوا بلاط المدينة ، وجمعوه فى السكك
المطروقة ، حتى يتعذر مشى الفرسان عليه ، ونهبوا (جبخانات)
البارود السلطانية . فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك ، وهو خارج
أمر بجعل المدينة محاصرة حكما ، وجعل قائد العسكر أميرا من أعداء
الفرنساوية مشهورا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع أن هذا
خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك
ليس جليل الرأى ، فانه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح ،
فان عفو الملك أبقى للملك ! ولما ولى على عساكره الا جماعة عقلاء ،
أحبابا له وللرعية ، غير مبغوضين ولا أعداء ، ولكن أراد هلاك رعاياه
حيث نزلهم بمنزلة أعدائه ، مع أن استصلاح العدو أحزم من
استهلاله ، ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحلم وبالحياء والرفق بالمذنب ، والاغضاء
ان لم تقل عشرة من يقال يوشك أن يصيبك الجهال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لأضداده ،
فلو أنعم فى اعطاء الحرية ، لأمة بهذه الصفة حرية . لما وقع فى

مثل هذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه فى هذه المحنة الأخيرة ، لاسيما
وقد عهد الفرنسيات بصفة الحرية وألفوها ، واعتادوا عليها
وصارت عندهم من الصفات النفيسة ، وما أحسن قول الشاعر :

وللناس عادات وقد ألفوا بها لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم فذاك ثقل عندهم وبغيض

وفى اليوم الثامن والعشرين أخذت الرعية من يد العساكر
محل يسمى : « دار المدينة » الذى هو محل شيخ مدينة باريس ،
فعند ذلك ظهر الخفر الأهلى يعنى « الرديف » (١) وهم عساكر
كانت سابقا تخفر الأهالى ، كما أن للملك عساكر (ورديان) (٢)
تخفـره وقد كان أبطلهم الملك « شول » أو « كرلوس العاشر »
فلما وقعت الفتنة ظهوروا ليمنعوا عن الرعية ، فشهرؤا أسلحتهم
للقتال ، وطردها سائر العساكر من محلهم ، وأحرقوا كثيرا منها ،
وفى هذه الأوقات ارتفعت المحاكم ، وصار الحاكم هو الرعية ،
ولم يمكن للدولة عمل شئ ، فقد بذلت ما عندها من القوة لخماد
ذلك وتسكينه فلم تقدر عليه ، فكان جميع المحافظين متحركين ،
و (الطبقية) (٣) معينة لاثنى عشر ألفا من الورديان السلطاني ،
وستة آلاف من عساكر الصف ، فكانت جملة العساكر السلطانية
ثمانية عشر ألف نفس غير الطبقة والمحافظين ، وكان من يحمل
السلاح من الرعية أقل من هذا العدد ولكن من لا يحمل السلاح
يحارب بالأحجار ، أو يعين المتسلح . وبعد أخذ دار المدينة وسلب
مدفع من العساكر الحربية ظهر انهزام سائر العساكر السلطانية

(١) الرديف : الجند الاحتياطى .

(٢) يريد بهم الحرس .

(٣) رجال المدفعية .

بالبلدة ، ثم ذهبوا الى الديوان المسمى « لوور » (١) والى قصر
« طويلريا » (٢) وهو (سراية الملك) ووقع الحرب فيهما بين
العساكر وأهل البلد ، وبينما هم فى الحرب بهذا المحل اذ انتشر
البيرق المثلث الألوان الذى هو علامة الحرية على الكنائس والهيكل
العامة ، ودقت نواقيس الخطر لاعلام سائر الناس داخل وخارج
« باريس » من أهل المدينة أو غيرها ، بطلب حمل السلاح منهم
للاستعانة على العساكر ، فلما رأت العساكر أن النصر للرعية ،
وأن ضرب السلاح على أهل بلادهم وأقاربهم عار عليهم امتنع
أغلبهم ، وعزل كثير من رؤسائهم نفسه من منصبه ، وفى اليوم
التاسع والعشرين فى الصباح ، ملك أهل البلد ثلاثة أرباع المدينة ،
ووقع أيضا فى أيديهم قصر « طويلريا » و « لوور » فملكوهما ،
ونشروا عليهما بيرق الحرية ، فلما سمع بذلك سر عسكر المأمور
بادخال أهل « باريس » فى طاعة السلطان ، رجع ، فكان
هذا تمام نصره أهل البلد ، حتى ان العساكر دخلت تحت
(بيرق) الرعية ، ومن هذا الوقت ترتب حكم وقتى وديوان مؤقت ،
لنظم البلاد حتى ينحط الرأى على تولية حاكم دائم ، وكان رئيس
هذا الحكم المؤقت سر عسكر ، المسمى « لافييته » (٣) وهو الذى
قاتل فى الفتنة الأولى للحرية أيضا ، وهذا الرجل شهير بأنه يحب
الحرية ، ويحامى عنها ، ويعظم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا
الوصف وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد فى « البوليتيكة »
وليس صاحب قريحة ، مستخرجا للعلوم من حيز العلم كغالب رجال
الفرنساوية ومشاهيرهم ، خصوصا فى العلوم العسكرية ، ولكن

Louvre.

(١)

La Palais des Tuilleries.

(٢)

La Fayette

(٣)

أعظم الناس مقاما ، لا قريحة وفهما ، وليس المراد القدح في معرفته ، بل في انتهاء الرياسة اليه ، ومما يشاهد في سائر بلاد الدنيا أن النصدر ليس دائما على قدر المعرفة وان كانت المعرفة موجبة له بالشرع والطبع ، ومن الغريب أن مثل هذا الأمر يقع أيضا في البلاد الحسنة التمدن ، وأظن أن هذا كله مضداق الحديث الشريف الذي هو « ذكاء المرء محسوب عليه من رزقه » وكما قال الشاعر :

إذا أبصرت ذا فضل فقيرا	فلا تعجب لفقر في يديه
فقد قال النبي مقال صدق	ذكاء المرء محسوب عليه

وما أحسن قول الشاعر :

ولو أن السحاب همى بعقل	لما أروى مع النخل القتادا
ولو أعطى علي قدر المعالي	سقى الهضبات واجتنب الوهادا

الفصل الثالث

(كيف كان يصنع الملك فى هذه المدة ، وفيما جرى بعد ذلك من رضائه بالصلح ، بعد فوات أوانه ، وفى خلعه المملكة على ابنه)

اعلم أن أوامر الملك برزت منه وهو فى بلدة « سنكلو » على القرب من باريس ، فالفتنة حصلت فى باريس ، والملك لم يكن بها ، ثم ان أهل المدينة بعثوا له أن يغير وزراءه ، وأن يسترد أوامره ، ويسترجعها ، يعنى أن يكتب أمرا بأنه أعاد اليه ما كان أمر به فلم يرض بذلك ، وأرسلوا اليه فى ذلك عدة وكلاء ، ليستعطفوه ، ويترجوه فى هذا المعنى ، فلم يفد كلامهم ، بل كان : أضيع من دمع على طلل ، وأخبروه أن الرعية لا تريد ذلك أبدا ، وأنه ربما ترتب عليه فساد أعظم من ذلك ، فأجاب بأن كلامه غير قابل للتغيير والتبديل ، فلما تحقق عنده أن دولته قد أشرفت على الزوال بسبب عدم قبوله للمصالحة ، أرسل يطلب منهم ذلك بنفسه ، فأجابوه بأنه لم يبق محل للصلح ، وأن أوان الصلح قد فات ، وأنه لم يتبصر فى العواقب ، ومن لم يتبصر فى العواقب لقي النوائب . وأنه لم يدقق النظر ، والا لما حصل له ذلك [الضرر] وفى اليوم الثلاثين من شهر يولية اتفق رأى أهل مشورة رسل العمالات على أن يبعثوا ليترجوا « الدوق درليسان » قريب السلطان من بدنة ثانية بأن يكون قائم مقام المملكة ، حتى تقع

مشورة أخرى على من يتولى مملكتهم وكان خارج « باريس » فبمجرد ما وصله ما اقتضاه نظر هذه المشورة وصل الى « باريس » فى الحادى والثلاثين ، ونزل فى دار المدينة ، وأجاب برضائه بما صنعه أهلى هذا الديوان وعند دخوله شرع يذكر عبارة عظيمة فى السبب الحامل له على الرضاء بذلك ، وملخصها : أنه قد حصل لى غاية التحسر على الأمر الذى جعل « باريس » فى هذه الحالة المسببة عن خرم القوانين أو تفسيرها بمعنى بشع تحتمله عباراتها ، ولقد امتثلت وجئت بينكم لأخلص البلاد من الفشل ، ولا بد أن ألبس معكم علامة الثلاثة ألوان التى قد لبستها كثيرا فى أول عمري ، ثم ختم عبارته بقوله : والشرطة تصير من هذا الوقت حقا . يعنى أنه يعمل بقوانين المملكة ، وتصير متبعة لا يحاد عنها لكونها حقا ، ولقد صارت هذه الجملة عند الفرنساوية مثلا من الأمثال ، وألفاظها بالفرنساوية فى غاية الحماسة ، ثم ان « شرل » العاشر ظن أنه يمكنه التخلص من زوال مملكته بخلع الملكة على ابنه ونزوله عنها له : شعر :

يودلو أن أيام الحمى رجعت وقل أن رد شيء بعد ما ذهب

فما كان ذات يوم فى « سنكلو » (١) الا وخرج ابنه « الدوفين » (٢) فى ساحة ، وجمع فيها العساكر ، وأعلمهم بأن أباه ولاء ملكا ، فتلقت العساكر هذا الخبر باستخفاف وبغير اعتناء . ثم ان الملك لما ولى ابنه سافر مع ديوانه وجلسائه فى ليلة التاسع والعشرين من شهر يولية ، وبقي الدوفين وحده ينتظر عاقبة توليته ، فأحضر جميع من معه من العساكر ، وسيرها قدامه ، ليرى كيفيتها ، فلما علم أنها لا ترضى بالمحاربة معه ، نوى

Saint cloud.

Le Dauphin.

(١)

(٢) لقب ولى عهد فرنسا «

السفر ، وخرج من « سنكلو » فبعد عدة ساعات من خروجه ، انتشر على قصر « سنكلو » (البيرق) المثلث ، وهذا القصر هو (سراية) السلطان في هذه البلدة ، فوصل السلطان وأتباعه في « رنبوليا » (١) في غرة شهر أغسطس ، وفي اليوم الثاني من هذا الشهر بعث « شرل » العاشر وابنه « الدوفين » ورقة « للدوق درليان » (٢) قريبهما يذكران فيها أنهما خلعا المملكة على الدوق « دبردو » (٣) حفيد الملك ، وابن أخى الدوفين « وأنهما جعلاهما « الدوق درليان » وكيله ووليه ، حتى يبلغ رشده ، وطلبنا منه في هذه الورقة أن يبعث لهما جماعة ، ليؤمنوهما في خروجهما من فرنسا ، فعرض « الدوق درليان » ذلك على مشورة رسل العملات فلم يرضوا بخلع المملكة ، ورضوا بأن يبعثوا له عدة وكلاء من الكبار ، ليؤمنوه في خروجه من فرنسا ، ثم انه جاء الخبر في « باريس » أن الملك لم يرض بالخروج حالا ، فوجهوا اليه جملة من العساكر ، ليكرهوه حالا على الخروج ، فبمجرد سماعه بذلك أجاب بالخروج متوجها الى بلاد الانكليز .

شعر :

والدهر طورا بعز يقضى ، وطورا بهون
وهكذا حال الدنيا ، وأحسن ما قيل في التسلية والصبر على
مكارها قول بعضهم :

سلا بنفسى عن الدنيا وبهجتها أنى أرى فانيا منها تلافانى
والصبر أحمد ما أوليت من قلق ما كنت فى شدة الا تلافانى
وفى هذا الوقت كان ابن عمه قائم مقام المملكة « بباريس »
فكان الأمر والنهى له ولدواوين المشورة ، فأول ما صنعه تقرير

Rambouillet.

Le Duc d'Orléans.

Duc de Bordeaux.

(١)

(٢)

(٣)

بقاء الثلاثة ألوان التى هى علامة على حرية الملة الفرنسية ،
ثم فتح ديوان مشورة العمال وديوان مشورة البير ، وقد جرت
العادة أنه عند فتح ديوان مشورة العمال يحضر الملك ، ويخطب
على منبر بكلام فصيح ، يذكر فيه ما صنعه من التحسين فى بلاده ،
وما هو عازم على فعله فى سنته ، ولما كان هذا الدوق قائما فى هذا
الوقت مقام الملك صعد على المنبر يقول كلاما وجيزا مضمونه :

أنه يتحسر على الخطر الذى حصل لمدينة « باريس » عقب هتك
قوانين المملكة ، تم بعد فراغه سلم لديوان المشورة الورقة التى
بعثها له « كرلوس » العاشر وابنه « الدوفين » المتضمنة لخلعهما
المملكة على الدوق « دبردو » وأنها يسميانه « هنرى » الخامس ،
لأنه تقدم فى فرنسا أربعة ملوك كل منهم يسمى : « هنرى » ثم
خرج قائم مقام المملكة من المشورة ، وصار ديوان المشورة يفتح
كل يوم للتدبير .

الفصل الرابع

(فيما انحط عليه رأى أهل المشورة ، وفيما ترتب على هذه الفتنة من تولية الدوق دورليان ملك فرنساوية)

اعلم أن المشورة كانت تدبر حالة فرنسا المستقبلية . وقد أسلفنا أن آراء فرنساوية مختلفة ، حتى انهم في المشورة مختلفون في الموضع ، فمنهم الملكية يجلسون في الجهة اليمنى ، والحريريون في الجهة اليسرى ، والتابعون لآراء الوزراء في الجهة الوسطى ، وكل منهم يقول رأيه من غير معارض له ، لأن العبرة بكثرة الأصوات ولا زال هذا الأمر ، معمولا به الى الآن ، ولم تغير الفتنة شيئا من ذلك ، فكان أصحاب الآراء فرقتين : فرقة تريد المملكة ، وفرقة تريد الجمهورية ، والفرقة الأولى منها من كان يريد تمليك الدوق « دوبردو » حفيد الملك القديم ، ومنهم من كان يريد تولية ابن « نابليون » الذي هو « بوناپارته » ومنهم من كان يريد تمليك « الدوق درليان » قائم مقام المملكة ، وعائلة « درليان » هي العائلة الثانية الوارثة للمملكة ، بعد انقراض العائلة الأولى البكرية ، وهي عائلة « البربون » ثم انه ظهرت ورقة مطبوعة ، وألصقت في الحارات والمشارع العامة ، مضمونها ، قد صح بالتجربة أن الجمهورية لا تناسب بلاد فرنساوية ، وأما الدوق دوبردو فتوليته تجعل فرنساوية تحت حكم « البربون » فتقع فرنساوية فيما فرت منه ، وأما ابن نابليون فهو تربية قسيسين وهم أعداء الحرية فتعين « الدوق درليان » انتهت .

وقد دبرت المشورة عدة مواد انحط عليها الرأي .

المادة الأولى : أن الكرسي فارغ حسا ومعنى ، ولاحق لأحد فيه فلا بد من شغله بأحد . الثانية : من أغراض الفرنساوية ومن مصالحهم أن تحذف العبارات الداله على الاستعلاء من الشرطة ، التي هي كتساب قوانين المملكة ، لأن بقائها بهذه الكيفية يحط بمقام الرعية الفرنساوية ، ولا بد أن يحذف من الشرطة بعض المواد الغير اللائقة وتبدل بغيرها ، حتى تكون مصلحة على ما تقتضيه الحال الراهنة ، ثم بعد تمام ذلك طلب ديوان مشورة وكلاء الرعية أن المصلحة العامة اللازمة حالا لجميع الفرنساوية أن يترجى حضرة سمادة « الدوق درليان لويز فليب » قائم مقام المملكة ، لأن يكون ملكا وتكون مملكته وراثه بعده لأولاده الذكور ، ثم بعده لأكبر أولاده ، وهكذا . يعني أن، الملك اذا مات انتقلت المملكة لأكبر أولاده ، فاذا مات أو حصل له عذر كانت لابنه الأكبر ، وهكذا ، وأن يقبل المملكة ويرضى بالشروط ، وبصيغة المبايعه التي يعينها له أهل المشورة ، وأن يلقب بملك الفرنساوية ، لا بملك فرنسا ، والفرق بينهما أن ملك الفرنساوية معناه كبير على نفس الأشخاص بجعلهم له ملكا ، بخلاف ملك فرنسا ، فان معناه أن أرض فرنسا مادامت باقية فهو سيدها وملكها ، ولا منازع له من أهل بلاده فيها وسبب ذلك أن الملوك السالفين كانوا يلقبون ملوك فرنسا ، وكان اذا كتب الواحد منهم يقول ما صورته : أنا فلان بفضل الله تعالى ملك فرنسا « ونوار » (١) على كل من يرى هذه الأوامر الحاضرة سلام قد أمرنا ونأمر بما سيأتى لنا . وقوله : ملك فرنسا ظاهر ، وأما قوله « ملك نوار » فان هذا لقب اصطلاحى له ، مجرد الشرف : وسبب ذلك أن أسلاف ملك فرنسا كانوا يحكمون

إلا بالقوانين المسطورة وعلى طريقها ، وأن أعطى كل دى حق حقه ،
بما هو ثابت فى القوانين ، وأن أعمل دائما على حسب ما تقتضيه
مصلحة الرعية الفرنساوية وسعادتها وفخرها ، ثم صعد على كرسى
المملكة ، وشرع يقول : ياساداتنا ، قد حلفت فى هذا الوقت يمينا
عظيما ، وما جهلت بالواجبات المرتبة به على ، مع عظمها واتساعها ،
لما أن نفسى تحدثنى أننى أوفى بها ، وما قبلت المبايعة الا عن رضى ،
وقد كنت عزمتم على ألا أركب أبدا الكرسى الذى أعطته لى الملة
الفرنساوية ، ولكن لما رأيت أن فرنسا قد جرححت حررتها ،
وتكدت الراحة العامة بأرضها ، وبهتك قوانين المملكة قد أشرفت على
الفساد ، وجب نصب القوانين ، وكان ذلك من وظيفة ديوان
« البير وديوان رسل العملات » ، وقد وفيتهم بذلك ، فما صنعناه
من اصلاح الشرطة يستلزم الأمن فى المستقبل فأمولى أن فرنسا
تصير مرتاحة فى داخلها ، ومحترمة فى خارجها ، والصلح فى بلاد
أوروبا يزيد ثباتا ، فلما فرغ من كلامه صاحت الأصوات : حفظ الله
الملك « لويز فليب الأول » ، ثم سلم الملك على المجلس ، وخرج ،
مصافحا من رآه من أهل المجلس وغيرهم ، وركب حصانه ، ومشى ،
وصار يصافح الناس عن يمينه وعن يساره ، وربما عانق كثيرا من
الناس ، وكان موكبه مؤلفا من أهل البلد ، ومن خفر الملة المسمى
الخفر الأهلى يعنى « الرديف » ولما دخل الليل نورت باريس بوقدة
عظيمة وكان تملكه فى السابع من شهر أغسطس سنة ١٨٣٠
من الميلاد .

الفصل الخامس

فيما حصل للوزراء الذين وضعوا خطوط أيديهم على الأوامر السلطانية التي كانت السبب في زوال مملكة الملك الأول الذي فعل فعلته ، وفي العواقب لم ينظر ، وطمع بما لم يظفر ، كما قال الشاعر :

ان النفوس على اختلاف طباعها طمعت من الدنيا بما لم تظفر
اعلم أن فرنساوية بعد هذه الفتنة اهتموا غاية الاهتمام بالتفتيش على الوزراء الذين كانوا السبب في ذلك ، وأيضا فانه بمقتضى القوانين أن الوزراء يضمنون ما يقع في المملكة من الخل فهم المحاسبون دون الملك : وليس على الملك شيء أصلا ، فحملهم ثقل ، ووظيفتهم شاقة التحمل ، فعليهم الوزر في كل ما يحدث ، قال الشاعر :

يتداول الناس الرياسة بينهم وأريد حظههم فلا أستطيع
وأكلف العبء الثقيل وانما تبلى به الأتباع لا المتبوع
فعليهم الأثقال يرمى حملها وعلى الرئيس الختم والتوقيع

فبرزت الأوامر في جميع طرق البلاد أن يوقفوهم اذا مروا عليهم ، وقد قلنا : ان رئيس الوزراء كان « بولنياساق » فمسك من الوزراء أربعة منهم هذا الأمير المذكور . وصورة القبض عليه : أنهم وجدوه خارجا من بلاد فرنسا في صورة خادم لامرأة عظيمة ، فعرفوه ، وأوقفوه وخفروه الخفر الموجود في الطريق خوفا من

زيادة على ذلك بالموت الحكيمى وهو تقريبا نظير مسألة من انقطع خبره وحكم بموته القاضى باجتهاده ، بعد مضى مدة لا يعيش فوقها غالبا ، والموت الحكيمى عند الفرنساوية ، ويقال له « الموت المدنى » هو أن يكون حكم الحى عندهم كحكم الميت فى كثير من الأحوال ، وهو أن المحكوم عليه بذلك يزول عنه جميع ما يملكه ليدخل تحت يد ورثته مثل ما اذا مات حقيقة ، ولا يصح ان يرث غيره بعد ذلك : ولا أن يورث هو غيره الأموال التى ملكها بعد ذلك ، ولا يمكنه أن يتصرف فى أمواله جميعها أو بعضها بهبة أو وصية ، ولا يجوز اهداؤه ، ولا الوصية له الا بالقوت ، ولا يجوز أن يكون وليا ولا وصيا ولا شاهدا فى شهادة شرعية ، ولا تقبل دعواه ، ولا ينعقد نكاحه ، بل ينفسخ نكاحه الأول ، بالنظر للأحكام المترتبة عليه : ولزوجته وأولاده أن يصنعوا فى أمواله أو فى أنفسهم كما لو مات هو حقيقة . وبالجمله فهو حى ملحق بالموتى ، ولكن لما كان هذا الوزير وأمثاله ممن يحكم عليهم بذلك من أعيان الناس ، وكانت ذريته حسنة التربية ، كان المحكوم عليه بذلك يبقى فى العادة على ما كان عليه قبل الحكم ، لكون عائلته تعتقد أن هذا من باب التعدى المحض ، وأنه ناج بينه وبين مولاه ، ولا تفارقه زوجته أصلا ، لاعتقادها أنها فى عصمته باطنا ، ولو ولدت منه بعد ذلك ولدا ورثه الأخوة معهم ، وان كان هذا خلاف الأحكام المترتبة على الموت الحكيمى ، ولما سمعت الرعية بذلك قاموا وقالوا لا بد من الحكم عليهم بالموت الحقيقى ، فأخبرهم أهل الدولة أن هذا يناقض ما تطلبونه من الحرية والعدل والانصاف ، وأن كتاب القوانين لم يعين نوع عقوبة الوزراء اذا حصلت منهم خيانة ، وانما حكمت

المشورة بالاجتهاد عقوبة لهم وزجرا لأمثالهم ، ويصلج فى حقهم
قول الشاعر :

فهم من المجد فى حضيض وهم من الجد فى الروابى
وهم اذا فتشوا وعدوا أعز من عودة الشباب

ثم ليلة أن حكم عليهم بذلك ، قبل أن يطلعوهم على خلاصة
المشورة أخرجوهم من هذا الحبس الذى كان بنى لأجلهم ، وخفروهم
الى قلعة « ونسينه » (١) فحبسوهم بها ، ومنها نقلوهم الى قلعة
أخرى ، وهم محبوسون بها الى الآن ، والحكم عليهم بهذه الكيفية ،
مما يدل على حسن أخلاق الدولة الفرنسية .

وقال آخر :

الدهر يفترس الرجال فلا تكن ممن تطيشه المناصب والرتب
كم نعمة زالت بأدنى زلة ولكل شيء فى قلبه سبب

وكتبوا أيضا فى وقائع النوادر ما نصه : ان الباشا المذكور يقول « لشرل » العاشر قم بنا نلعب لعب كذا ، على قدر معلوم ، وان لم يكن معك شيء جمعنا لك شيئا ، على سبيل الصدقة من الناس ! يشيرون بذلك الى أن باشا الجزائر خرج من بلاده غنيا ، و « شرل العاشر » خرج من بلاده فقيرا ، وصوروا أيضا الملك المذكور فى صورة أعمى يتكفف الناس ، ويقول فى سؤاله : أعطوا بعض شيء للفقير الأعمى ، يشيرون الى أنه لم يتبصر فى عواقب الأمور ، وصوروه أيضا هو ووزيره « بولنياق » خارجين من كنيسة ، اشارة الى أنهما لا يفلحان الا فى هذه العبادة الباطلة ، وأنهما قسوس لا أمراء ، وكانوا يزعمون أن الملك كان يلبس فى بعض الأحيان لباس القسيسين ، ويقدم بالناس كالقسيس فى كنيسة التى فى (سرايته) . وكانوا يصيحون فى البلدة بعد هذه الفتنة بورقات مطبوعة ، فيها : عشق هذا الملك وفساده فى صغر سنه ، وفسق المطران الكبير ، وهكذا ، وبأن ابن ابنه ليس هو ابنا حقيقيا ، وانما هو ابن مزور ، والعجيب أنهم كانوا يصيحون بهذه الأوراق لبيعوها فى ساحة بيت الملك الجديد ، الذى هو من أقارب الملك . وأعجب من ذلك أنهم يكتبون فى هذه الورقة : أن الملك الجديد هو الذى كتب ذلك سابقا فى « جرنالات » الانكليز ، بعد ولادة حفيد الملك القديم ، ويصيحون بذلك ، ولا أحد ينكر عليهم ، لما أن حرية الرأى قولا وكتابة تقضى بذلك .

وبعد تولية هذا الملك ظهرت عدة تعصبات عظيمة ، منها من يريد عزله ونصب الجمهورية لعدم اكتفائه بالحرية وطلبه أزيد من

ذلك ، ومنهم من تعصب لنصب الحكم القديم ، وتولية حفيد
الملك السابق .

ولا زالت هذه الفتنة باقية الآثار الى الآن ، وربما تعدت آثارها
الى غيرها من البلاد .

فمن ذلك : الفتنة التي ترتب عليها انعزال اقليم البلجيك من
مملكة الفلمنك ، وقد كان جزءا منها .

ومن آثارها أيضا : طلب بلاد له الحرية والخروج من حكم
الموسقوبية .

ومنها : الفتن التي وقعت في بلاد ايطاليا .

الحرب وظهوره بين النيمساوية والفرنساوية ، أو الموسقوبية ، أو
الاسبانيول ، أو البروسه .

والله سبحانه وتعالى أعلم بما كان وبما يكون ، وللفرنساوية
الآن التثام مع الانكليز لم يسبق مثله أبدا ، وأما الكلام على
الرجوع فراجعته في خاتمة الرحلة .

المقالة السادسة

(فى ذكر نبذات من العلوم وفنون المسرودة فى الباب الثانى من المقدمة)

وهى تشتمل على عدة كتب

الكتاب الأول

فى تقسيم العلوم والفنون من حيث هى ، وفى ذكر الفنون والعلوم العامة لجميع التلامذة

الفصل الأول

[فى تقسيم العلوم والفنون على طريق الافرنج]

اعلم أن الافرنج قسموا المعارف البشرية الى قسمين : علوم وفنون فالعلم هو الادراكات المحققة المذكورة بطريق البراهين ، وأما الفن فهو معرفة صناعة الشئ على حسب قواعد مخصوصة .

ثم ان العلوم تنقسم الى رياضية وغيرها ، وغير الرياضية تنقسم الى طبيعيات والهيئات .

والعلوم الرياضية هى : الحساب ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة .

والعلوم الطبيعية هى : تاريخ الطبيعيات ، وعلم الطبيعة ، وعلم الكيمياء .

والمراد بتاريخ الطبيعيات علم الحشائش ، والأعشاب ، وعلم المعادن والأحجار وعلم الحيوانات .

وهذه الفروع الثلاثة تسمى مراتب التولدات : مرتبة النباتات ، ومرتبة المعادن ، ومرتبة الحيوانات .

وأما الالهيات فتسمى أيضا علم ما وراء الطبيعيات : أو ما فوق الطبيعيات .

وأما الفنون فانها تنقسم الى فنون عقلية ، وإلى فنون عملية ، فالفنون العقلية ما يكثر قريبها من العلوم ، مثل علم الفصاحة والبلاغة ، وعلم النحو ، والمنطق ، والشعر ، والرسم ، والنحاتة ، والموسيقى ، فان هذه فنون عقلية ، لأنها تحتاج الى قواعد علمية . وأما الفنون العملية : فهي الحرف .

هذا هو تقسيم حكماء الافرنج ، والا فعندنا أن العلوم والفنون في الغالب شيء واحد ، وانما يفرق بين كون الفن علما مستقلا بنفسه ، وآلة لغيره ، ثم ان العلوم المطلوبة من عموم التلامذة هي : الحساب ، والهندسة ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والرسم ، ومعرفة هذه كلها تكون بعد معرفة اللغة الفرنسية ، وما يتعلق بها ، فلذلك وجب علينا هنا أن نذكر نبذة منها :

الفصل الثانى

[فى تقسيم اللغات من حيث هى ، وفى ذكر اصطلاح اللغة
الفرنساوية]

اعلم أن اللغة لما كانت ضرورية فى افهام السامع معنى يحسن
سكوت المتكلم عليه وكانت لازمة فى التفهيم والتفهم وفى المخاطبات
والمحاورات ، وجب عند جميع الأمم على المتعلم أن يبتدىء بها ،
ويجعلها وسيلة لما عداها ، واللغة من حيث هى الألفاظ
المخصوصة الدالة على المعانى المخصوصة ، وطريقها الكلام
والكتابة المختلفة باختلاف الأمم ، وهى قسمان : لغات مستعملة .
ولغات مهجورة ، فالأول ما يتكلم بها الآن كلغة العرب ، والفرس ،
والترك ، والهند ، والفرنسيين ، والاطليانيين ، والانكليز .
والأشبانيول ، والنمسا ، والموسقو ، والثانى ما انقرض أهله واندثر
ولم يبق الا فى الكتب مثل اللغة القبطية ، واللاطينية ، واليونانية
العديمة المسماة بالاغريقية . ومعرفة هذه اللغات المهجورة فى
المخاطبات نافعة لمن أراد الاطلاع على كتب المتقدمين ، وفى بلاد
الافرنج توجد مدارس مخصوصة معدة لتعلم هذه الألسن .
لما يعلمون من نفعها .

وكل لغة من اللغات لابد لها من قواعد لتضبطها كتابة وقراءة ،
وتسمى هذه القواعد باللغة الطليانية « أغرماتيقا » وباللغة الفرنسية
« أغرمير » ومعناها تركيب الكلام ، يعنى علم ضبط اللغة بنحوها ،
فلا مانع من أن يراد بالنحو قواعد اللغة من حيث هى ، وهو مرادنا
هنا فهو : علم به يعرف تصحيح الكلام والكتابة على اصطلاح اللغة
المرادة الاستعمال ، والكلام ما قصد به افادة السامع معنى يحسن

عليه السكوت ، وهو يتركب من الكلمة ، وأقسامها عند أهل اللغة العربية ثلاثة : الاسم ، والفعل والحرف ، والاسم اما مظهر نحو زيد ، أو مضمّر نحو هو ، أو مبهم نحو هذا . والفعل اما ماض كضرب ، أو مضارع كيضرب ، أو أمر كاضرب . والحرف اما مختص بواحد من قسيميه كمن وقد ، أو مشترك بينهما كهل وبلى .

وانما قسمنا هذا التقسيم هنا لأنه سيأتى لنا أن الفرنساوية عندهم الضمير واسم الاشارة قسيما للاسم ، ولا يعدان منه بوجه من الوجوه فانهم جعلوا اجزاء الكلمة عشرة ، كل واحد منها قسم مستقل له علامة وهى الاسم ، والضمير وحرف التعريف والنعته والمشارك وهو أسماء المفعول والفاعل والفعل والظرف ويسمى عندهم مكيف الفعل ، وحروف الجر وحروف الربط وحروف النداء والتعجب ونحوه . فيقولون فى تعريف الاسم هو كلمة تدل على شخص أو شيء أى على العالم وغير العالم مثل زيد وفرس وحجر . وفى تعريف الضمير : هو ما يقوم مقام الاسم وحرف التعريف هو أيضا عندهم لام التعريف كما عندنا الا أنه يختلف باختلاف الاسم الداخلى عليه فانه للمذكر « ل » بالضم ، وفى المؤنث « ل » بالفتح ، ولجمعيهما « لس » ، ولكن السين لا ينطق بها ويقولون فى تعريف النعت هو ما يدل على الاتصاف بوصف من الأوصاف كحسن وجميل ، فهو نظير الصفة المشبهة ، وأما اسم الفاعل واسم المفعول فانهما نحو ضارب ومضروب ، والظرف عندهم مثله فى لغة العرب ، وحروف الجر مثل الظروف ، وحروف الجر فى اللغة العربية ، فاذا قال الانسان باللغة الفرنساوية جئت قبل زيد وبعده ، فان قبل وبعده من حروف الجر عندهم ، واذا قال جاء زيد أولا أو قبل أو نحو ذلك فانه ظرف . وأما الحروف الروابط فانهم يعرفونها بأنها ما تتوسط بين كلمتين أو جملتين نحو واو العطف فى قولك جاء زيد وعمرو ، ونحو أن فى قولك أومل أن أعيش زمنا طويلا . ومن هذا القسم اذن وحينئذ من نحو

قولك أنت عاقل ، فاذا أنت قابل للتعلم أو أنت فحينئذ قابل ،
وحروف النداء والتعجب ونحوها معلومة ، وقواعد لغتهم يلزمها هذا
التقسيم .

ويظهر أن قول بعضهم أقسام الكلمة أو الكلام ثلاثة فى سائر
اللغات ، وإن الحصر عقلى لعله استقلالها بالمفهومية وعدمه ، ودلالة
ما استقل بالمفهومية على زمان وعدمها فيه بعض شئ .

ورأيت فى كتب الفرنساوية من قسمها أولا الى هذه الأقسام
الثلاثة ، ثم قسمها تقسيما ثانويا ، فالحصر حينئذ عقلى على حاله .

ثم إن كل انسان يعبر عن مقصوده اما بالكلام أو بالكتابة ،
فكلامه يسمى عبارة ومنطقا . وتعبيره عن مقصوده بالكتابة يسمى
نفسا ومسطرة وقلما ، فقد يكون قلم الانسان أفصح من عبارته ،
فانه قد يكون الانسان أكن ، ويكون قلمه فصيحاً ثم انه اذا أفصح
وأغرب غرابة مقبولة كانت عبارته عالية ، وإن كانت عبارته مؤدية
للمقصود من غير ركافة فهي مناسبة ، وإن كان بها بعض شئ
يمجه السماع فهي ركيكة أو رديئة ، وعلى كل فالعبارة اما بها اطناب
أو اختصار أو على الأصل ، ثم إن الكاتب اما أن يفصح عن مراده
بنظم أو نثر ، وعلى كل فاما أن يكون كلامه أو تأليفه باللغة المستعملة
فى المحاورات المسماة الدارجة أو باللغة الموافقة ، فقواعد النثر هو
الأصل فى الكلام والتأليف ، ولا يحتاج الى وزن وتقفية الا فى
السيجع ، وهو لسان العلوم والتاريخ والمعاملات والمراسلات
والخطابات ونحو ذلك ، ولاتساع اللغة العربية كان بها كثير من
كتب العلوم منظوما ، وأما لغة الفرنسيين فلا ينظم فيها كتب
العلوم أصلا .

والنظم هو أن يفصح الانسان عن مقصوده بكلام موزون مقفى ،
وهو يحتاج زيادة عن الوزن الى رقة العبارات ، وقوة الأسباب
الداعية لنظمه ، ويعجبني قول بعضهم موريا :

صوغ القريض على اختلاف رجاله
«واذا أردت بأن تفوز بدره
ما بين حصبا لاتعد وجوهر
نظما فخذ من «صحاح الجوهري»
ولبعضهم :

يا من يقول الشعر غير مهذب
لو كان كل الخلق فيك مساعدي
ويسومنى التكليف فى تهذيبه
لعجبت من تهذيب ماتهزوبه (١)
وقال بعضهم فى فقد الأسباب :

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة
خلت الديار : فلا كريم يرتجى
باب الدواعى والبواعث مغلق
منه النوال ، ولا مليح يعشق
وقال آخر :

الشعر لا يخفى عليكم حاله
وارحمنا لبنى القريض ، فانهم
قد باروا أسفاه ، يعد نفاق (٢)
ماتوا ، وهم أحياء ، من الاملاق (٣)

ونظم الشعر غير خاص بلغة الغرب ، فان كل لغة يمكن النظم
فيها بمقتضى علم شعرها ، نعم ، فن العروض على الكيفية الخاصة
به المدون عليها فى لغة العرب وحصره فى البحور الستة عشر
المستعملة هو لخصوص اللغة العربية ، وليس فى اللغة الفرنسية
تقنية النشر . ومعرفة فن النظم لا تكفى فى نظم الشعر ، بل لابد
أن يكون الشاعر به سجية النظم سليقة وطبيعة ، والا كان نفسه
باردا وشعره غير مقبول :

الى العربى مل فى نظم شعر
فشعر الفرس أسكرنا بجسام
فذاك لسان أرباب الكمال
وشعر الترك طرز بالخيسال

(١) الصواب : ما تهذى به ، ليكون الجناس تاما .
(٢) نفاق : مصدر نفق البيع : راج ، ورغب الناس فيه .
(٣) الاملاق : الانتقار .

ولنذكر هنا خلاصة صغيرة من الأشعار ملخصة من أحسن القصائد والمقطعات فنقول : قد اشتهر أن أرق بيت قالته العرب في الغزل قول جرير :

ان العيون التي في طرفها حور قتلتنا ، ثم لم تحين قتلانا
يسلبن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله انسانا

ولنذكر هنا حكاية لطيفة ، وهي : أنه دخل أعرابي على ثعلب ، فقال له : تزعم أنك أعلم الناس بالأدب ؟ فقال : كذا يزعمون ، فقال : أنشدني أرق بيت قالته العرب ، وأسلسه فقال قول يرير : ان العيون الى آخره ، فقال : هذا الشعر نعت رث ، قد لاكه البسطة بالسنتها ، هات غيره ، فقال ثعلب : أفدنا من عندك يا أعرابي ، فقال : قول مسلم بن الوليد صريع الغواني :

نيسارز أبطال الوغى فنبيدهم ويقتلنا في السلم لحظ الكواعب
وليست سهام الحرب تفنى نفوسنا ولكن سهام فوقت في الحواجب

فقال ثعلب لأصحابه : اكتبوها على الحناجر ، ولو بالخناجر ! فشعر مسلم ابن الوليد أقوى حماسا من قول جرير ، وأقول : ان نسبة القوة بينهما كنسبتها بين قول بعضهم :

خطرات النسيم تجرح خدي ولمس الحرير يدمى بنانه

وقول ابن سهل الاسرائيلي :

اني له عن دمي المسفوك معذر أقول : حملته في سفكه تعباً

ومما يمكن نظمه في سلك قول مسلم بن الوليد قول بعضهم :
نعد العذارى من دواهي زماننا واقتلها أحداقها والمهاجر
ونشكو اليها دائرات صروفه وأعظمها أطواقها والأساور

ويعجبني قول أمين أفندي الزلى فى همزيتة :

واقرن صبحك بالغبوق، ولا تدع	فرص السرور بغدوة ومساء
واعقد ببنت الحان ، واجعل مهرها	عقلي ، وأشهد سائر الندماء
واستجلها بكرا تقلد جيدها	بعقود در بل نجوم سماء

الى أن قال :

من كف ساق فى لىء ولحظه	وحديثه نوع من الصهباء
وبخده ورد حماء بأسمهم	عن قطفه باللحظ والايماء

ويحسن هنا ذكر قول الشهاب الحمجازى :

لا وغصن راق للطرف ورق	وعليه حلل الظرف ورق
وشموس لم تغب عن ناظرى	والشعور الليل والخذ الشفق
وعيون حرمت لومى ومسا	حملت لى غير دمعى والأرق
ما احمرار الراح الا خجلا	من رضاب سكرت منه الحدق
والذى قد حسبه حبيبا	فوق خد الكاس قطرات العرق

ويعجبني قول بعضهم :

لسولا شفاعه شعرها فى صبيها	ما واصلت وأزالت الأسقاما
لكن تنازل فى الشفاعه عندها	وغدا على أقدامها يترامى

وينتظم فى سلكه قول بعضهم :

سل سيفاً من لحظه ثم أرخى	وفرة وفرت عليه الحميلة (١)
ان شكا الخصر طولها غير بدع	لنحيل يشكو الليالى الطويلة

(١) الحميلة : علاقة السيف .

ومما يفوق قول الواو (١) الدمشقي أو يساويه :
قالت متى الظعن يا هذا؟ فقلت لها : اما غدا زعموا أولا فبعد غد
فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا ، وعضت على العناب بالبرد
وقول بعضهم :

بنفسي بيضاء العسوارض أقبلت
بوجه كأن الشرق من حسنه غرب
وبين الأزار الملوى حقف رملة (٢)
وبين الوشاح المتلوى غصن رطب
وتحت لثام الخز أنفسيها لظى (٣)
وفوق الرواد السكب لامعها سكب
تبدت مع الأتراب تدعو على النوى (٤)
وان لم يكن فى الغانيات لها ترب
تسيل على الخد الأسيل (٥) دموعها
وصب دموع العين يروى به الصب
وقد وكلت إحدى يديها بقلبيها
مخافة أن يرفض من صدرها القلب (٦)
فلما أجزن الجسر قمن وراءه
كسرب من الغزلان ليس له سراب (٧)

-
- (١) الصواب : الواو .
(٢) الأزار : كل ما سترك ، والحقف : كل ما اعوج من الرمل واستطال .
(٣) الخز : الحرير ، واللظا : النار أو لهيها
(٤) الأتراب : جمع ترب وهو من ولد معه ، والنوى : البعد
(٥) الأسيل : اللين الأملس الطويل .
(٦) ارفض : تفرق ، وذهب
(٧) السرب من الغزلان : القطيع منها . وسرب (فى آخر البيت) بمعنى البال
والقلب والنفس .

وعضت بدر الثغر فضة معصم
يكاد يننيه من الذهب القلب (١)

وكادت تحط الرحل لولا عزيمتى
قسي جفون العين أسهمها الهدب

ومما بعد من الأشعار الرقيقة قول الشاعر :

يصفر وجهى اذا تأمله طرفى فيحمر خده خجلا
حتى كان الذى بوجنته من دم جسمى اليه قد نقلا

ومما ينسب للخليفة هارون الرشيد :

واذا نظرت الى محاسنها فلكل (٢) موضع نظرة نبل (٣)
وتنال منك بعد مقلتها ما لا ينال بحده النصل
شغلتك وهى لكل ذى بصر لاقى محاسن وجهها شغل
فلقلبها حلم يباعدنها عن ذى الهوى ، ولطرفها جهل
ولووجهها من وجهها قمر ولعينها من عينها كحل (٤)

ومن أرق ما قيل أيضا قول الشاعر :

لاموا على صب الدموع كأنهم لا يعرفون صبايتى وولوعى
فأجبتهم : وعد الخيال بزورة أفلا أرش طريقه بدموعى !
ومما يعجب فى الرثاء قولى أبى الطيب فى أبى شعجاع فاتك :
يا من يبذل كل يوم حلة أنى رضيت بحلة لا تنزع
مازلت تخلعها على من شاءها حتى لبست اليوم ما لا يخلع
مازلت تدفع كل أمر فادح حتى أتى الأمر الذى لا يدفع

-
- (١) يننيه : يكون ثانيا له . القلب (بالضم) : سوار المرأة .
(٢) الأصل : « فكل » وبه ينكسر الوزن ولعل الصواب ما ذكرناه : فلكل .
(٣) النبل : عظام الحجارة أو صفارها .
(٤) الكحل : سواد منابت شعر الأجفان خلقة .

فظللت تنظر لارماحك شرع(١)
بأبى الوحيد وجيشه متكاثر
واذا حصلت من السلاح على البكا

الى أن قال :

من للمعاقل والجحافل والسرى(٢)
ومن اتخذت على الضيوف خليفة

وقوله أيضا فى فاتك المذكور :

لا فاتك آخر فى مصر نقصده
من لا تشابهه الأحياء فى شيم
عدمته وكأنى سرت أطلبه

الى أن قال :

الدهر يعجب من حملى نوائبه
وقت يضيع وعمر ليت مدته
أتى الزمان بنوه فى شبيبته

بالجملة والتفصيل فأحسن وأظرف سائر ما قيل :

سلوت على الأجابة والمدام
وسلمت الأمور الى الهى
وملت الى اكتساب ثواب ربي
وما أنا بعده معط عنان الـ

بين الأقام ولا سيوفك قطع
يبكى ومن شر السلاح الأدمع
فحشاك رحت به وخذك تفرع

فقدت بفقدك غيرا لا يطلع
ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيع

ولا له خلف فى الناس كلهم
أضحى تشابهه الأموات فى الرمم
فما تزيدنى الدنيا على العدم

وحمل جسمى على أحداثه الحطم(٣)
فى غير أمته من سالف الأمم
فسرهم وأتيناها على الهرم

وملت عن التهمتک والهيام
وودعت الغواية بالسلام
وقدما طال عزمى بالغرام
هوى لكن ترى ييذى زمامى

(١) شرع : مسددة ، مصوبة .

(٢) الجحافل : جمع جحفل ، وهو : الجيش العظيم -

(٣) الحطم : الشديدة .

أبعد الشيب وهو أخو مكون
فشرب الراح نقص بعد هذه
فكم أجريت في ميدان لهو
وكم قبلت وردا من حدود
سأوتى الكأس تعبسا وصد
عزمت على الرجوع عن المناهى

يليق بأن أميل الى غرام
ولو من راحتي بدر التمام
خيول هوى وكم ضربت خيامي
وكم عانقت غصنا من قوام
وان جاءت تقابل بابتسام
ومثلي من يدوم على اعتزام

الفصل الثالث

(فى فن الكتابة)

هو فن يعرف به التعبير عن المقصود بنقوش مخصوصة تسمى حروف الهجاء أو حروف المعجم ، وأغلب الحروف الهجائية متفقة فى سائر اللغات ومبدوءة بحرف الألف إلا عند الحبشة ، فإن حرف الألف هو الثالث عشر ، وصناعة الكتابة شديدة النفع عند سائر الأمم ، وهى روح المعاملات واحضار الماضى ، وترتيب المستقبل ورسول المراد ، ونصف المشاهدة . ثم ان العرب والعبرانيين والسرريانيين يكتبون من اليمين الى الشمال ، والصينيون يكتبون من أعلى الى أسفل ، وتكتب الافرنج من الشمال الى اليمين ، وهل الأوفق-طبعا الكتابة من اليمين الى الشمال كما تكتب العرب وغيرهم ممن ذكر معهم ، أو العكس كما تكتب الافرنج ؟ .

مما يدل على الأول ترتيب الأعداد فإنها مرتبة طبعا ، وهى تبدئ من اليمين الى اليسار ، فالآحاد التى هى أجزاء العشرات تكون على يمين العشرات ، والعشرات كذلك بالنسبة للمئات ، وهى كذلك بالنسبة للآلاف ، وإذا كانت الأعداد أصولا لغيرها - يعنى أشياء أولية اتفقت فيها الطبائع على اختلاف أصحابها - دل ذلك على أن مخالفتها مخالفة للأصل وثبت تقيضه وهو المراد . وحاول الافرنج فحملوا القراءة والكتابة على قراءة الأعداد وكتابتها فقط ، فبرهنوا بهذا على أوفقية طريقتهم للطبع . فمن باب أولى يقال : ان الكتابة من أعلى الى أسفل مخالفة لمقتضى الطبع ويقال : ان العرب كانت تعرف الكتابة فى زمن سيدنا أيوب عليه السلام ، وقد رقع

اختلاف في أن الحروف الهجائية هل هي من الأوضاع الالهية أو من الأوضاع البشرية ، وعلى الثاني فقد وقع الاختلاف في أنها من أوضاع أى ملة ، فقال بعضهم : انها من أوضاع السريانيين أو من أوضاع قدماء المصريين ، واستظهر الأول فعليه تكون انتقلت من السريانيين الى اليونان ، بدليل أن الحروف اليونانية هي عين السريانية الا أنها انقلبت من الشمال الى اليمين ، ومن أهل اليونان أخذ الرومانيون حروفهم ؟

وجودة الخط لا تدل على الفضل ، وعدم تأدية الكتابة حقها دليل على الجهل .

وقد تنازع الشعراء في التفضيل بين السيف والقلم ، ثم بين قلم الانشاء والحساب . وأشار المتنبي (١) الى تفضيل السيف في قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونها جلاء الشك والريب
وأشار السيوطي في كتاب الأوائل الى تفضيل القلم على السيف حيث قال :

الكتب عقل شوارد الكلم والخط خيط فرائد الحكم (٢)
بالخط نظم كل منتشر منها ، وفصل كل منتظم
والسيف ، وهو بحيث تعرفه فرض عليه عبادة القلم

(١) البيتان الآتيان لأبي تمام في مطلع قصيدته التي هنا بها المعتصم بعد عودته منتصرا من غزوة في بلاد الروم .

(٢) عقل الدابة : دبطها . وشوارد الكلم : نوادرها وغرائبها . فرائد الكلم : نفائسها .

وتمام رفع المنازعة في تاريخ الدول لابن الكردبوسى في
قوله : قوام الملك (١) شيئان السيف ، والقلم . والثانى مقدم علي
الأول . وبرهن علي ذلك . والظاهر أن يقال في ذلك ما قيل في
الكتابتين : من أن صناعة الانشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ،
فيقال ان السيف أرفع من القلم ، والقلم أنفع منه .

(١) قوام الملك : عماده ، وما يقوم به .

الفصل الرابع

(فى علم البلغة المشتمل على البيان والمعانى والبديع)

وهو علم تحسين العبارة ، أو علم تطبيق العبارة على مقتضيات الأحوال ، والمقصود منه على العموم توصل الانسان الى الافصاح عما فى ضميره بفصيح الكلام وبليغه .

وهذا العلم بهذا الحيثية ليس من خواص اللغة العربية ، بل قد يكون فى أى لغة كانت من اللغات ، فانه يعبر عن هذا العلم فى اللغات الافرنجية بعلم « الريشوريقي » نعم هذا العلم فى اللغة العربية أتم وأكمل منه فى غيرها ، خصوصا علم البديع فانه يشبه أن يكون من خواص اللغة العربية ، لضعفه فى اللغات الافرنجية .

وبلاغة أسلوب القرآن الذى نزل اعجازا للبشر من خصوصيات اللغة العربية ، ثم انه قد يكون الشئ بليغا فى لغة غير بليغ فى أخرى ، أو قبيحا فيها ، وقد تتفق بلاغة الشئ فى لغتين أو لغات كما اذا أردت أن تعبر عن رجل شجاع بأنه أسد ، فتقول زيد أسد ؛ فان هذا مقبول فى غير اللغة العربية كما هو مقبول فيها واذا أردت أن تعبر عن شخص حسن بأنه بديع الجمال ، فتقول : هو شمس أو عن حمرة خده فتقول : خدوده تتلظى ، فان هذا التشبيه حسن فى اللغة العربية ، غير مقبول أصلا فى اللغة

الافرنجية • وكذلك ما يقال فى الريف ونحوه ، مثل قول الشاعر :

خلى ان قالت بثينة : ماله
أتانا بلا وعد ؟ فقولا لها : لها

سها ، وهو مشغول بعظم الذى به
ومن بات طول الليل يرعى السها سها (١)

بثينة ترمى بالغزاة فى الضحى
اذا برزت لم يبق يوما بها بها (٢)

لها مقلة نجلاء كحلاء خلقة
كان أباهما الظبي أو أمهما مها (٣)

دهتنى بود قاتلى ، وهو متلفى
وكم قتلت بالود من ودها دها (٤)

وماست بأعطاف لطاف تهزها
فعاينت غصن البان من هزها زها (٥)

وقالت : وقد سارعت فى السير دونها
وقاطعت طرقا دونها ومها مها

سلافة ريق (٦) عتقت ، ثم روقت
فمن لم يمت بالسكر من صفوها وهى

(١) السها : كوكب خفى فى مجموعة « بنات نعش » .

(٢) الغزاة : الشمس .

(٣) النجلاء : الواسعة . والمها جمع مهاة ، وهى البقرة الوحشية .

(٤) دها : دهاء .

(٥) زها : ازدها .

(٦) الظاهر أن الصواب : ريقى ، ليكون مقول القول • وعتق : قدم • وهى

الرجل : حقيق .

وفى الشفة اللعسا دوا كل مدنف
فان كنت مشتاقا الى رشفها فيها (١)

فأغلب التشبيهات الموجودة فى هذه الأبيات غير مقبولة عندهم ، لأنهم يقولون ان الطبع لا يالف الريق مثلا لكونه آيلا الى البصاق . واذا شبهت بضع العذراء قبل افتضاضها بالوردة التى لم تفتح ، ثم بعده بالوردة المفتوحة كان ذلك عظيما عند الفرنسيين . فمبنى البلاغة عندهم على ما يقبله الطبع . ويقال : نسبة علم البلاغة للبلاغة كنسبة العروض للشعر ، فحينئذ قد توجد البلاغة عند من لا يحسن علمها ، كما أنه قد يحسنه غير البليغ .

وأغلب نفع البلاغة يكون فى الشعر والخطابات ونحوها من كتب الآداب والتواريخ وأعظم نفع ذلك العلم الموصل الى معرفة أسرار التنزيل واعجازه ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى زمن شعر ونظم وكهانة ، فأيده الله سبحانه وتعالى بالقرآن الذى لو « اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » فظهر لأرباب العقول الصائبة أنه كلام قادر يقدر ولا يقدر عليه ، وأنه لا يشبه كلام المخلوقين ، فأمنوا به ، واتبعوه ، الا من حق عليه العذاب . فنزل القرآن الشريف على مقتضيات الأحوال ، وكانت سائر عباراته مناسبة للأحوال لفظا ومعنى ، واذا أردت توضيح العلوم الثلاثة ومعرفة قواعدها فعليك بكتب المعانى والبيان والبديع .

(١) المدنف . المريض .

الفصل الخامس

[فى المنطق]

هو علم يبحث فيه عن المعلومات التصورية والتصديقية من حيث توصيلها الى غيرها ، والمشهور أن واضعه « أرسطو الحكيم » المسمى أيضا : « أرسطاطاليس » وفى كتب الفرنساوية أن أرسطاطاليس هو الذى قد كمل هذا الفن ، وأن « أفلاطون » أيضا هذبه ، وأن « زنون » وضعه . ونسبة هذا العلم للجنان كنسبة النحو للسان ، والعروض للنظم ونحو ذلك .

ولهذا العلم مبادئ ومقاصد ، فمبادئ التصورات والتصديقات ومقاصده التعريفات والأقيسة ، والتصصور ادراك غير الحكم ، وعكسه للتصديق فاذا تصورنا حقيقة الرجل من غير أن نحكم عليه باثبات ونفى كان ذلك تصورا ، واذا حكم عليه بأن عالم مثلا فإنه يكون تصديقا ، والتصصور قسمان : بسيط ، مركب ، فالتصور البسيط : ادراك الشئ مجردا عن صفاته ، والمركب : ادراك الشئ مع بعض صفاته ، مثال الأول : ما اذا تصورت الانسان ولم يخطر ببالك أنه متحرك ، ومثال الثانى : ما اذا تصورته وميزته من الجماد بتحريكه فالتصور لا يكون الا فى المفردات ، كما أن التصديق لا يكون الا فى القضايا ، والقضية ، هى حكم يحصل باثبات تصور الى آخر ، أو نفيه عنه ، فالتصور المسند اليه الاثبات أو النفى يسمى : الموضوع ، والتصور المسند الى الموضوع مما تقدم يسمى : المحمول ، والموضوع والمحمول يسميان جزءى القضية ،

وهذان الجزآن يجمعهما جزء ثالث يسمى رابطة . مثال ذلك ما اذا قلت : زيد فصيح فان زيدا هو الموضوع وفصيح هو المحمول ، والرابطة مقدرة والتقدير زيد هو الفصيح ، أو زيد يكون فصيحاً ، وأما اذا قلت : زيد هو الفصيح فان الرابطة ظاهرة ، ثم ان القضية اما كلية يعنى مستغرقة لسائر الأفراد ، كما اذا قلت : كل انسان صنعة الله تعالى ، واما جزئية كما فى قولك : بعض الحيوان انسان . وكل من القضية الكلية والجزئية مسور .

واما شخصية واما مهمله فالأولى كزيد قائم والثانية كالانسان كاتب بقطع النظر عن الكلية والجزئية . واما طبيعية : كما فى قولك : الظلم ردىء . والقضية أيضاً اما بسيطة أو مركبة ، فالقضية البسيطة ما كانت غير متعددة الموضوع والمحمول ، كما فى قولك : الفضيلة حميدة ، والرذيلة ذميمة ، وبخلافها المركبة ، فهى ما تعدد فيها الموضوع فقط ، أو المحمول فقط ، أو هما معا ، كما اذا قلت : الفضيلة والرذيلة ضدان ، أو الفضيلة محبوبة مطلوبة ، أو الفضيلة والرذيلة ضدان لا يجتمعان ، ونحو ذلك ، واذا كانت القضية المركبة مصنوعة من عدة قضايا بسيطة فانه يكفى فى كذبتها كذب بعض أجزائها . وأما التعريفات التى هى مقاصد التصورات ومصححات القضايا فانها تنقسم الى تعريف بالحد ، وتعريف بالرسم ، وتعريف لفظى ، فمثال التعريف بالحد قولك الانسان حيوان ناطق ، ومثال التعريف بالرسم قولك : الانسان حيوان كاتب ، ومثال التعريف اللفظى قولك الانسان هو الآدمى اذا فرضنا أن لفظ الآدمى أشهر وأعرف من لفظ الانسان . ويمكن أن يجعل من هذا القسم الثالث سائر تفسير الألفاظ المترجمة من لسان الى آخر ، مثال ذلك : اذا قدرنا أن أعجميا لا يعرف معنى كلمة الله ، فانك تعرفها له تعريفا لفظيا بقولك له : الله هو « خدای » .

وكل من الحد والرسم ينقسم الى تام ، والى ناقص ، على حسب كونه بالجنس ، أو الفصل القريب أو البعيد ، أو بالخاصة ، أو بالعرض العام ، كل منها منفردا أو مجتمعا ، وهذا كله موضح فى كتب المنطق .

وأما القياس : وهو المقصود الأصيل من علم المنطق فهو ما يلزمه لذاته تصديق آخر ، مثال ذلك : ما اذا قلنا ان الله سبحانه وتعالى لابد أن يقتض من الظالم للمظلوم ، فانك تقول هكذا : الله سبحانه وتعالى حكم عدل ، وكل من كان كذلك فانه يقتض للمظلوم من الظالم ، فتكون النتيجة هكذا الله سبحانه وتعالى يقتض للمظلوم من الظالم . فمتى سلمنا القضيتين الأوليين فلا بد أن نسلم القضية الثالثة ، والقضيتان الأوليان تسميان مقدمتين ، واحدهما تسمى صغرى ، والأخرى كبرى ، وروح القياس هو النتيجة .

والقياس يكون صحيحا اذا كان صحيح المادة والصورة ، وفاسدا اذا فسدت احدهما ، والمراد بصحة المادة أن سائر قضاياها تكون صحيحة ، والمراد بصحة الصورة أن يكون منظوما على كيفية يكون انتاجها ضروريا ، والقياس الصحيح : هو المسمى بالحجة والبرهان ، وأما القياس الفاسد أو البرهان الفاسد فيسمى سفسطة ، وهو ما يشبه الصحيح وليس صحيحا ، لعدم ملازمة نتيجته الظاهرية للمقدمات الصحيحة .

وفى كتب الفرنسيين أن القاعدة التى يبنى عليها القياس الصحيح ويمتاز من السفسطة هى اثبات أصليين أحدهما مبنى الصحة ، والآخر مبنى الفساد ، وهما أن المستلزم لشيء مستلزم لذلك الشيء ، والنافى لشيء ناف لشيء آخر هو ناف لذلك الآخر ، أو ناف للآخرين معا ، وكيفية تطبيق هذا على القياس انك اذا سئلت عن الغضب هل هو مذموم ، فأردت أن تستدل على أنه مذموم ، فانك تبحث عن طرف القضية الذى هو الموضوع . فانك ترى من

يجملة تعريف الغضب أنه عيب ، فحينئذ كلمة غضب متضمنة لمعنى العيب فتركب مقدمة هكذا : الغضب عيب ، ثم تقابل العيب مع الذم الذي هو محمول القضية ، فانك تجد أن العيب يستلزم الذم ، فتقول : العيب ذميم ، فاذا لما رأيت أن الغضب يستلزم العيب والعيب يستلزم الذم ، فانك تنتج منه أن الغضب ذميم ، فكل قياس لا يمكن أن تطبقه على هذا الأصل فانه يكون سفسطة ، مثال ذلك أرسطو فيلسوف ، وبعض الفلاسفة صالح ، فأرسطو صالح ، فان الانتاج فاسد . وذلك أن القضايا لا تستلزم النتيجة ، لأنه لا يلزم من كون أرسطو هو أحد الفلاسفة ، وأن بعض الفلاسفة صالح أن أرسطو صالح .

وبعض أجزاء القياس قد يحذف للعلم به ، كما في قولك :
«الفضيلة حميدة ، فينبغي كسبها .»

والقياس اما حملي أو شرطى ، فكل ما تقدم مثال للحملي ، ومثال الشرطى : لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجودا ، لكن الشمس ليست بطالعة - تخرج النتيجة قائمة - فالنهار ليس بموجود . ومحل ذلك كتب المنطق .

ثم ان الاقترنج كما يطلقون الكلمات على قواعد اللغة الفرنسية ، ويسمون ذلك اعرابا نحويا ، يطبقونها على قواعد المنطق ويسمون ذلك [اعرابا] منطقيا ، فاذا أراد انسان اعراب « زيد فاضل » اعرابا نحويا فانه يقول مثلا زيد مبتدأ وفاضل خبره أو نحو ذلك مما يليق بقواعد نحوهم ، واذا أراد أن يعرب اعرابا منطقيا فانه يقول : زيد موضوع ، وفاضل محمول ، وهذه القضية قضية شخصية ، ويفعلون ذلك في سائر الجمل .

الفصل السادس

[فى المقولات العشر المنسوبة الى أرسطو]

من المعلوم أن أرسطاطاليس حصر الأشياء المتعلقة فى عشر هراتب تسمى مقولات ، فجعل المواد داخلة تحت الأولى ، وجعل سائر الأعراض داخلة تحت التسعة (١) الأخرى .

المقولة الأولى : مقولة الجوهر ، وهو جسمانى وروحانى .

الثانية : الكم وهو اما منفصل اذا كانت الأجزاء متفرقة مثل العدد ، أو متصل اذا كانت الأجزاء مجتمعة . وهو اما متتابع مثل حركة الفلك ، أوقار وهو المسمى العظم أو الامتداد للجسم ، من الطول والعرض والعمق . فمن الطول وحده تتعقل الخطوط ومن الطول والعرض تتعقل السطوح ، ومنها مع العمق يحصل الجسم التعليمى .

الثالثة : الكيف ، وقسمه أرسطو الى أربعة أقسام ، فالأول : هو الاستعدادات يعنى تهيئات العقل أو الجسم المكسوبة بالأعمال المتكررة مثل العلوم والفضائل ، والردائل ، والقدرة على الكتابة والرسم والرقص ، والثانى القوى الطبيعية : مثل قوة النفس والبدن ، كالادراك ، والارادة ، وقوة الحفظ والحواس الخمسة ، والقدرة على المشى ، والثالث القوى المشاهدة : مثل الصلابة ، والرخاوة ، والكثافة ، والبرد ، والحر ، والألوان

(١) الصواب : التسع .

والأصوات ، والروائح ، والأذواق ، والرابع الصور ، والأشكال
التي ينتهى بها الكم مثل : الاستدارة والتربيع والكروية والتكعيبية .

الرابعة : مقولة الاضافة وهى النسبة بين شيئين مثل الأب ،
والابن ، والمخدوم ، والخادم ، والملك ، والرعية ، وكنسبة القدرة
والارادة لمتعلقيهما ، والبصر للمبصر بالقوة وكنسبة التي تقتضى
المشاركة ، كالشبيه ، والمساوى ، والمباين ، والأصغر ، والأكبر .

الخامسة : مقولة الفعل ، سواء كان قائما بالفاعل مثل :
المشى ، والقيام ، والرقص ، والمعرفة والعشق . أو واقعا منه على
غيره مثل الضرب ، والقتل الى آخره .

السادسة : مقولة الانفعال ، مثل الانكسار ، والانحراف .

السابعة : مقولة الأين ، يعنى جواب السؤال الذى يتعلق
بالمكان مثل قولك : فى مصر ، فى الحريم ، فى الفراش .

الثامنة : مقولة متى ، وهو جواب السؤال الذى يتعلق
بالزمان ، كما اذا قلت : متى كان موجودا فلان ؟ فقل من منذ
مائة سنة ، أو متى وقع هذا ؟ فقل : البارحة .

التاسعة : مقولة الوضع ، كحالة الجلوس ، والوقوف ، وكونه
قبل ، أو بعد ، أو أمام أو على اليمين ، أو على اليسار .

العاشرة : مقولة الملك ، وهو وجود شئ مع الانسان منسوب
اليه ، كاللباس ، والزينة ، والسلاح ، فتعلق ذلك به وحوزه له
هو هذه المقولة فهذه المقولات العشر التي ذكرها أرسطو ، وعدت
من الأمور الخفية ، والافرنج يقولون انه ليس فى معرفة هذه
المقولات كبير فائدة ، بل معرفتها مضره لشيئين : الأول أن الانسان
يظن أنها مبنية على حكم عقلى ومحصورة بحصر استدلالى ، مع أنها
ليست الا اصطلاحية جعلية ، حصرها بعض الناس فى هذه الأقسام

ليظهر بها الرياسة على غيره ، مع أنه يوجد في ذلك الغير من يمكنه أن يحصرها حصرا آخر جديدا ، كما فعل ذلك بعض الناس من أنه حصر المقالات في سبعة ، وسماها المواد العقلية :

• **المادة الأولى :** العقل أو الجوهر الدراك

• **الثانية :** الجسم ، أو الجوهر ذو الامتداد

• **الثالثة :** القدر أو صغر كل جزء من أجزاء الهيولات

• **الرابعة :** وضع الهيولات على التناسب بين أجزائها

• **الخامسة :** صورة الأشياء

• **السادسة :** الحركة

• **السابعة :** السكون

الشيء الثاني أن متعلمها يكتفى بمجرد ألفاظ وهمية ويظن أنه على شيء ، مع أنه لم يعرف بها شيئا له في الواقع معنى واضح
• محقق

الفصل السابع

(في علم الحساب المسمى باللغة الأفرنجية الارتيماطيقى) (١)

اعلم أن « الارتيماطيقى » هو أحد العلوم الرياضية الخالصة . وذلك لأن حكماء الأفرنج قسموا الرياضيات الى خالصة وغير خالصة أو مختلطة ، فالرياضيات الخالصة هي علم الحساب الغبارى ، والهوائى (٢) وعلم الجبر ، والمقابلة (٣) وعلم الهندسة ، ونحو ذلك ، وأما الرياضيات المختلطة فهي : علوم الحيل ، وفن تحريك الأثقال ونحوها . والرياضيات الخالصة هي ما تبحث عن الكميات ، والأشياء القابلة للزيادة ، والنقصان . والرياضيات المختلطة هي ما يدخلها أشياء خارجية من علم الطبيعة وغيره .

والحساب أهم العلوم الرياضية وقد دلت كتب التواريخ على أن واضع هذا العلم أهل بزور الشام ، يعنى الصوريين ، وقدماء أهل مصر - يعنى أن هاتين الأمتين هما أول من جمع الأعداد والحساب ، ونظماهما فى عقد الترتيب ، حتى ان فيثاغورس الحكيم رحل من بلاد اليونان الى مصر ، فتلقى فيها هذا العلم . ومما اشتهر بين السلف أن علم الحساب من مخترعات الصورتين ويقال : انهم أيضا أول من استعمل القوائم والدفاتر ، والظاهر أن الأصابع هي أول الطرق التى

L'Arithmétique.

(١)

(٢) يريد بالحساب الغبارى : ما يقوم به الحاسب على التراب والرمل ، وبالهوائى ما يقوم به الهواء .

(٣) يريد بالمقابلة المعادلات الجبرية .

استعملها الانسان في الحساب ، وأن ذلك هو السبب في كون أول عقد في العدد هو عقد العشرات ، والثاني عقد عشرات العشرات التي هي المئات ، والعقد الثالث عقد عشرات المئات أو الألوف وهكذا ، لأن الأصابع عشرة ، فكان الانتقال من عقد الى آخر من عشرة الى عشرة ، ولما كانت الأصابع لا تكفي الا في تمييز عشرة عشرة احتاج الأمر الى طريقة أخرى، وعلامات أخرى فأخذوا صغار الحصى ، وحبوب الرمل والقمح ونحوها ، واستعملوها لضبط المعدادات ، كما هو الآن عند بعض همل أمريكة ، وبعض همل غيرها من أقسام الأرض ، حتى ن بعض قدماء الأمم الماضين لا يوجد في لغاتهم ما يمكن التعبير به عما فوق العشرات ، فانهم كانوا يعبرون عن مائة وسبعة وعشرين مثلاً ، بقولهم : سبعة وعشرتان وعشرة عشرات ، وذلك لأن لأقدمين كانوا يذكرون العدد الأصغر قبل الأكبر ، فيبتدئون بالآحاد ثم بالعشرات ثم بالمئات ، وهكذا . كما قال بعضهم : انه يوجد في كتب العبرانيين واليانيين ما يدل على ذلك ، وهو أيضا أسلوب اللغة العربية فيما دون المائة ، وأما الآن فقد تبحر الأمم في علم الحساب وتنوعوا تفننوا فيه ، حتى وصلوا الى كماله وحد علم الحساب علم يبحث فيه عن الأعداد من حيث ما يعترئها من الأعمال .

والعدد : اجتماع الآحاد ، وهو قسمان : صحيح وكسر ، وزاد بعضهم ثالثاً، وهو ما تركيب منهما ، وسماه عدداً مشتملاً على الكسور ، ويتعلق بهذه الأعداد أعمال أربعة هي : الجمع ، والطرح ، والضرب ، والقسمة ، وهي معلومة في كتب هذا الفن .

وأما علم الهندسة ، فموضوعه قياس الامتدادات الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق ، كما أشرنا اليه في منظومتنا في علم الهندسة بقولنا :

موضوعه قياس الامتداد	فسره بالثلاثة الأبعاد
لطول والعرض كذا والعمق	وشرح هدى غير مستحق

وأما الجغرافيا ، فقد تقدم منها نبذة فى مقدمة الكتاب ، وانما ينبغى لنا هنا أن نذكر أقسامها ، فنقول : انه تارة ينظر الى الأرض من جهة شكلها وسكونها أو تحركها ، أو نسبتها لما عداها من الأجرام الفلكية ، فتسمى الجغرافيا الرياضية أو علم هيئة الدنيا ، وتارة تلاحظ من جهة مادتها الترابية أو المائية ، وما يتعلق بذلك مما يظهر على سطحها مثل الجبال ، فتسمى بالجغرافية الطبيعية أى المتعلقة بطبيعة الأرض . وتارة ينظر اليها من جهة اختلاف أهلها فى الدين والملة ، فتسمى : بالجغرافيا الدينية ، وتارة ينظر اليها من جهة اختلاف أهلها فى التدبير والسياسة والرسوم والقوانين ، فيسمى ذلك بالجغرافيا السياسية أو التدبيرية وتارة تعتبر من جهة التغيرات والتقلبات الحاصلة طول الأزمان المختلفة فى الأرض وفى أجزائها ، بالنسبة للدين والسياسة ونحو ذلك ، ويسمى ذلك بالجغرافيا التاريخية . وهذه هى الأصول ، والافالقساسة غير حاصرة ، ومن أراد الكلام على ذلك فعليه برسالتنا المسماة « بالتعريبات الشافية » بمريد (١) الجغرافية فانه موضح فيها غاية التوضيح ، غير أنه ينبغى لنا هنا الكلام على مسألة من مسائل علم الجغرافيا الرياضية التى هى علم الهيئة ، فنقول :

الافرنج قسموا الكواكب الفلكية الى ثوابت وإلى سيارة ، وإلى سيارة السيارة ، وإلى ذوات الذنب ، وعدوا الشمس من الثوابت ، والأرض من السيارة ، والقمر من سيارة السيارة ، أى التابعة فى السير للكواكب السيارة . وهذا المذهب يسمى عندهم مذهب « كبرنيق (٢) النيمساوى » ، وقد كشف المتأخرون منهم عدة كواكب سيارة لم يظفر بها المتقدمون ، لفقد الآلات عندهم ، ووجودها لهؤلاء الافرنج ، فبذلك بلغت السيارات المعروفة عندهم أحد عشر ، غير الشمس والقمر ، فان الأولى من الثوابت على رأيهم ، والثانى من

(١) الصواب : « لمريد » .

(٢) وفى الاصل كيرنيق وهو خطأ . Copernic

سيارة السيارة ، ولندكرها لك على حسب قربها من الشمس ، فنقول : هي : عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، و « وستة » (بكسر الواو ، سكون السين المهملة ، وفتح التاء المثناة) أى المجرمة السيارة ، و « بونون » (يضم الياء والنون بعدها واو) وتسمى (زوجة المشترى) ويقال لها : بنت زحل ، و « سريس » (بكسر السين والراء بعدها ياء مسكنة) ويقال لها (أى السنبلة السيارة) و « بلاس » (بفتح الباء وتشديد اللام) ومعناه « أبو الفلق » المشترك ، وزحل ، و « أورانوس » (يضم الهمزة وراء بعدها ألف ثم نون مضمومة) ومعناه الفلك الأعلى .

وهذه الكواكب الجديدة لا يمكن رصد دورانها على نفسها لا بصعوبة ، لصغر بعضها فى رأى العين ، وبعد البعض الآخر ، بل لا يمكن رصد ما عدا « أورانوس » إلا بالنظارات الفلكية ، ولهذا سميت عند الافرنج بالسيارات النظرية ، ويؤمل الافرنج كشف غيرها من السيارات .

وأما التاريخ فهو أيضا مما ينبغى للانسان الاطلاع عليه ، لاسيما أرباب الدول ، ولندكر لك هنا نبذة لطيفة ذكرها هنا بعض المؤلفين من الافرنج ، فنقول :

التاريخ مدرسة عامة يقصدها من أراد من الأمم أن يفوز بالتعلم وهو أيضا تجريبيات حوادث الأعصر التى تساعد الحال الراهنة ، من جهة اشتماله على عبر محفوظة يعين المرء على التفكير فى ظاهر الآتى ، فمنه يعتبر من اعتبر من جميع الناس أياما كان مقامهم ، لما أنه يظهر على رؤوس الأشهاد الآثار الرديئة المترتبة على تشاجرهم واختلافهم ، ومثل هذه الصورة المهولة تحملهم على التخلق بالأخلاق الحميدة مثل الحلم والعدل ، ومن التاريخ يفهم الملوك أنه فى زمن سلطنة ملك حسن التدبير ينبغى أن تكون شوكة الملك وكبرسيه ظلا ووقاية قال « بسوء » : لو فرض أن التاريخ لا ينفع

غير الأمراء فانه يجب قراءته للأمراء ، ولكن انما يفتح التاريخ للعاقل
كنوزه ، ليفهم منها خفياته ورموزه . فيشغل فكره مدة قراءته عن
تغيرات معيشة الانسان الباطلة ، ثم ينتقل من ذلك الى مادة أهم من
ذلك ، فتتكشف له سلاسل الزمن العديدة التي تمس حلقتها الأخيرة
خلق العالم ، أو ليس أن هذه السلاسل كميدان عظيم يطلع الانسان
فيه دفعة واحدة على جميع الأمم والدول وأزمان كل ؟ فانظر الى
هذا المحفل العظيم المحتوى على أرباب سعود ونحوس ، فكم فيه من
مدائن دمرت ، ومن دول انقرضت ، ومن ممالك ذهبت واندثرت
ومن محال خربت ، ومن مقابر عمرت ، فكان كل شيء يؤول الى القبور ،
وهي التي تعلو وحدها على ميدان الأرض ! فكم تظهر زينة الحياة
الدنيا هينة حقيرة اذا نظر الانسان من سماء التاريخ ! وكم يظهر أن
الجمعية التي في زماننا يسيرة هينة بجانب جمعيات أهالي القرون
والأعصار ، فشتان بين ملوك عصرنا الذين يمكن للناظر أن يقيس
عظمها المحسوس ، وملوك تلك الأزمنة التي يظهر للأعين كأنهم جبال
مرفوعة على دائرة أفق الأعصر السالفة ! وانظر ما تكون حروبنا
الوقتية ، وحبنا للعلو والشرف المؤقتين ، عجائب منازعة السلف
من مبدأ العالم ، على مكان من الأمكنة ، أو على شبر من الأرض ، فمن
نظر حق النظر في عجائب التاريخ فانه يكتسى بثياب الجدة ، ويتجرد
من ملابس الهزل ، ويصعد على ذروات النظر فيرى تحت رجليه أن
العالم بأسره أشبه ببحر محيط ، تسبح فيه سفن آمال الخلق وأمانتهم
من غير دفعة ، عرضة للرياح الشديدة ، وينتهي أمرها الى الانكسار على
ما يصادها من الشعوب ، ولا تجده من المراسي ما ترسى عليه غير
فرضات القدم ! فاذا نظرت من هذا المحل ترى بعين مجردة عن الطمع
حطام الدنيا الفانية ، والمدح الباطل المقصودين المرغوبين لكثير من
الناس كالأشياء ، أو ليس أن للدهر نكبات ، وتغيرات في جميع
ما وهبه وأعطاه فأى مملكة أمنا على كرسيها من السقوط ؟
وأى دولة أينستنا على تختها من الارتفاع ؟ أو ما رأينا أن الهيكل الواحد

يتناول على محرابه عدة أديان متباينة ؟ وكم ارتكبت الرذائل حيث كانت الفضائل قاطنة ؟ وكم من قواعد فخر وغنى آل أمرها الى أن أعقبها الفقر والحقارة ؟ وكم شوهده أن الخشونة والتمدن يمشيان بهرولة على سطح الكرة ، ويتبادلان على أجزائها من غير تخلل واسطة بينها ؟ وكيف قد آل أمرك أيتها المدائن التي كنت عامرة ببلاد آسيا ، وقد كنت تحكمين على جميع الأمم بامدن « نينويونس » ، و « بابل » السحرة ؟ أو « يا اصطخر » فارس ، وتدمر بسلامان ، كيف صارت الآن مجالك خرابا ، وقد كنت كراسى دول العلوم فلم يبق لك من فخارك القديم ، وبهاكك الجسميم غير الاسم وبعض رسم من حجر ! ومع ذلك فلم يحل ببلد من بلاد الدنيا ، من النكبات العجيبة والبلايا الغريبة ، مثل ما حل بمصر المباركة المصابة بالشقاء التي كانت خيولها تسبق سائلا خيول سائر الممالك في الركض في ميادين الفخار والعلم والحكمة ! فكأن الدهر أراد أن يصب على هذه البلاد دفعة واحدة اما نعيم الانعام ، أو عذاب الانتقام ، مع أنه لم يكن من الأمم مثل قدماء مصر ، في كونهم بذلوا جهدهم في الجلوس على مباني هياكلهم المشيدة ، وأرادوا بذلك أن يكونوا مؤبدين ، فبادوا جميعا واتقرضوا ، حتى إن أهل مصر الموجودين الآن ليسوا جنسا من أجناس الأمم ، بل هم طائفة متجمعة من مواد غير متجانسة ، ومنسوبون الى عدة جنوس مختلفة ، من بلاد آسيا وأفريقية ، فهم مثل خليط ، من غير قياس مشترك ، وتقاطيع شكل صورهم لا تتقوم منها صورة متحدة بها يعرف كون الانسان مصريا من سجنته ، فكأنما سائر بلاد الدنيا اشتركت ، في تأهيل بز النيل ؟ انتهى مترجما من مقدمة « الخواص آكوب » في تاريخ مصر .

وعلم التاريخ واسع ، وإن شاء الله تعالى يصير التاريخ ذو اختلافه منقولاً من الفرنسية الى لغتنا وبالجمله فقد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئته تعالى .

الخاتمة

(في رجوعنا من باريس الى مصر ، وفي عدة أمور مختلفة)

من المعلوم أن نفس القارئ لهذه الرحلة تتطلع الى معرفة نتيجة هذا السفر الذي صرف عليه مصاريق لم تسبق لأحد ، ولا سمع بها في التواريخ عند سائر الأمم ، وانما تسطيرها ؛ لأنها أنجبت علماء منهم من وصل الى رتبة أساطين الاقرونج ، فهم ما بين مدبر للأمور الملكية . حائز كمال الرتبة في السياسات المدنية ، كحضرة صاحب البراعة والبراعة رب الطالع السعيد . وذى (١) النجابة والرأى السديد . عبيد أفندى ، وما بين متمكن فى معرفة ادارة الأمور العسكرية . راق فيها الى درجة عليية . وما بين ربانى بسائر الأمور البحرية ، أو خبير بالطب ، أو بالكيميا الصحيحة المرضية ، وبصير بالطبيعات ، وماهر فى علم الزراعة والنباتات ، ومنهم فائق الأقران فى الفنون والصنائع ، وحرى بفتح (فبريقيات) تشتهر ببراعته بغير منازع ، ولولا خوف الاطالة لذكرت جميع من ظفر بقصده من الأفندية ، على حسب حوزة للمراتب العلية . ولعمري لا أستطيع عدم التعرض لعدة أشخاص قد بلغ فضلهم الغاية فى الامتياز ، غير أننى أسلك فى ذكرهم غاية الإيجاز ، كيف لا أقول ان حضرة مصطفى مختار بك أفندى قد بلغ درجة كبسار الفرنسية ، فى علم ادارة المهمات العسكرية ، وقد حاز مرتبة سامية من العلوم وتمكن من المنطوق منها والمفهوم ، ولاشك أنه ممتاز بالعلوم التدبيرية ، وجامع لمعارف الديار الافرنجية ، وسبح الله به دائرة المعارف ، بممالك مصر والشام ، وليس كل من اكتسب المعارف ، يصدر عنه عمل اللطائف . قال الشاعر :

(١) فى الاصل « وذو » وهو خطأ .

ومادة السيف أن يزهو بجوهره وليس يعمل الا فى يدي بطل

وأما حضرة حسن بك أفندى ، وكذا الأفندية البحريون ،
ففضلهم وكمال علومهم ثابت بالبرهان ، يدل عليه امتيازهم بين
الأقران ، شهرة اصطقان أفندى غنية أيضا عن البيان ، فقد حاز من
العلوم ما حاز ، وفاز من الفنون بما فاز . ولا ينكر فهم « الطين
أفندى » فى جميع أنواع العرفان ، ولا خليل أفندى محمود ، وتعلم
أحمد أفندى يوسف مشهود غير مجحود . وبالجمله فالجل من الأفندية
حصل المرام ، ورجع لنشر هذا بديار الاسلام .

ولنذكر هنا رجوع العبد الفقير الى مصر ليتم غرض هذه الرحلة
فنقول : خرجنا من باريس فى شهر رمضان سنة ١٢٤٦ وسرنا نقصد
مرسيليا ، لنركب البحر ونرجع الى أسكندرية ، فمررنا على مدينة
« فنتنبلو » بقرب باريس بها قصر سلطانى ، وهذا القصر شهير بأن
نابليون نزل فيه عن سلطنة فرنسا ، وخلعها عنه سنة ١٨١٥ من
الميلاد ، ويشاهد به عمود على شكل الهرم مبنى من الحجارة ، والقصد
منه أنه تبقى آثاره ، لتذكر رجوع « البربون » فى فرنسا ، فتجد
مرسوما عليه أسماءهم وتاريخ ولادتهم ، وغير ذلك . وفى هذه
الفتنة الأخيرة مع الخلق هذه الأسامي ، فلا يشاهد منها الا الآثار .
وهكذا عادة الزمان ، فى تلونه بجميع الألوان ، وغدرة وفتكه بقوم ،
واقباله على آخرين قبل تمام يوم . قال الشاعر :

قتلت صناديده الرجال فلم أدع	عدوا ولم أمهل على جيشه خلقا
وأخليت دار الملك بعد ملوكهم	فشردتهم غربا وبددتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزا ورفعة	وصارت رقاب القوم اجمع لى رقا
رمانى الرداسهما فأخمد جمرتى	فها أناذا فى حفرتى عاطلا ملقى

وكتابة تلك الرسوم من عادة الافرنج ، تأسيسا بالسلف
من أهالى مصر وغيرهم . فانظر الى بناء أهل مصر للبرابى
وأهرام الجيزة ، فانما بنوها لتكون آثارا ينظر بعدهم إليها من رآها .

ولنذكر لك آراء الافرنج فيها ، وما ظهر لهم بعد البحث التام حتى تقابله بما ذكره المؤرخون فيها من الأوهام . فنقول :

ملخص كلام الافرنج : أن الذى بناها هو ملوك مصر ، وأنه اختلف فى زمن بنائها . فبعضهم زعم أنها بنيت من منذ ثلاثة آلاف سنة . وأن البانى لها ملك يقال له : « قوف » (١) وبعضهم قال ان البانى لها ملك يقال له : « خميس » أو « خيوبس » ، والأظهر أن أحجارها منحوتة من صعيد مصر لا من البحيرة . وقال بعضهم : ان مدة بنائها لم تكن أزيد من ثلاث وعشرين سنة . وأن العملة الذين بنوها كانوا ثلثمائة وستين ألف نفس ، ولكن بمصاريف عظيمة ، حتى ان ما صرف على البصل والكراث للعملة يبلغ على ما قاله « بلنياس » نحو عشرين مليوناً من القروش المصرية ، ثم ان هذه الأهرام تنسب الى أحد ملوك الفراعنة ، وأنه أعيد الهرم الأكبر ليضم جثته ، والآخرين لدفن زوجته وبنته ، فلم يدفن هو فى الأول بل بقى هذا الهرم الآن مفتوحاً . وأما الهرمان الآخران فدفنت فيهما بنته وزوجته ، وسيدا سيدة محكما . هذا ما حكاه الافرنج فى شأن الأهرام ، ومما قيل فى عظم بناء الهرمين العظيمين :

خليلى ما تحت السماء بنية يشابه بنيها بنا هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما على الأرض يخشى دائماً سطوة الدهر

وقال بعضهم فى الأهرام ، مضمناً عجز بيت من معلقة طرفة .
لقد بت بالأهرام حول أحبة جفونى ببود يابس وتجلد
يقول بها صحبى لبرد جليدها وهجرى : لا تهلك أسى وتجلد

قال السيوطى فى منتهى العقول : انه يتعجب من قول العلماء ،
ان أعجب ما فى مصر الأهرام ، مع أن البرابى بالصعيد أعجب منها ،
والبرابى هى المشهورة عند العامة بالمسلات . ولغرابتها نقل منها

(١) لعله خوفو .

الافرنج اثنتين الى بلادهم : احدهما نقلت الى رومة في الزمن القديم ،
والأخرى نقلت الى باريس في هذا العهد .

وأقول : حيث ان مصر أخذت الآن في أسباب التمدن ، والتعلم
على منوال بلاد أوروبا فهي أولى وأحق بما تركه لها سلفها
من من أنواع الزينة والصناعة ، وسلبه عنها شيئا بعد شيء
بعد عند أرباب العقول من اختلاس حلي الغير للتحلي به ، فهو أشبه
بالغصب ، واثبات هذا لا يحتاج الى برهان ، لما أنه واضح البيان .
وقد صنع نابليون في باريس عمودا مفرغا من المدافع التي سلبها من
الموسقو والنمسا ، وقد حاول الموسقو استقاطه حين حلولهم بباريس ،
فما ظهر الا عجزهم عن ذلك .

ثم بعد أن جزنا « فنتنبلو » شاهدنا مدينة « تيمور » (١) بعد
سير أربع ساعات من « فنتنبلو » وهي على عشرين ساعة من باريس ،
ثم بعدها مررنا على مدينة « كونة » (٢) على شط نهر « ألورة » (٣)
وهي مدينة تصنع فيها الهاليب للمراكب السلطانية ، ثم على مدينة
« مولن » (٤) ، وبها كثير من أولاد العرب الذين أصبحوا الفرنسيين
من مصر الى فرنسا ثم سرنا حتى وصلنا مدينة « رونة » (٥) وهي
على سبعة وتسعين فرسخا فرنساويا على جنوب باريس ، قبل
الوصول الى مدينة « ليون » (٦) بثلاثة عشر فرسخا ، وأهلها تسعة
آلاف نفس ، وبها ديوان مشورة (للبريقات ؛ ومشورة للزراعة ،
وكتبخانة (٧) ومخزن آلات طبيعية وهندسة ، وبها قنطرة ظريفة

Nemours .

(١)

Cosne

(٢)

Loire

(٣)

Moulins

(٤)

Roanne

(٥)

Lyon.

(٦)

(٧) المكتبة هي الكتبخانة .

على نهر « لوار » ورصيف مشهور ، وهى ساحل لمركز تجارات
« ليون » وغيرها من سائر أنواع البضائع ، وبأراضيها مقاطع
الرخام .

ونهر « لوار » يمكن المسير فيه بقرب هذه المدينة : وهذه
المدينة غير مدينة « روان » البعيدة عن باريس جهة الشمال بثلاثين
فرسخا ، والتي يمر بها السين ، والتي هى من اقليم « نورمانديا » .

ثم وصلنا الى مدينة ليون - وقد تقدم الكلام عليها - ثم وصلنا
الى مدينة « اورغون » (١) التى على جنوب باريس بمائة وثمانية
وسبعين فرسخا فرنساويا وهى فى سفح جبل - شهيرة بكون
نابليون حال عبوره بها تخفى ، خوفا من أهلها ، ولا زلنا نمر ببلاد
حتى وصلنا الى « مرسيليا » وقد تقدم الكلام عليها مستوفى (٢) .
ومنها نزلنا فى سفينة تجارية ، وسرنا قاصدين اسكندرية ، ولا حاجة
أيضا الى ذكر ما شاهدناه ، لأنه عين ما سبق فى المقصد - غاية
ما نقول ان كل من يعرفنى من الفرنساوية طلب منى أننى بمجرد
دخولى اسكندرية أذكر ما يقرع فكرتى مما أستغربه لبعده عهدى من
مصر ، ولرؤيتى خلفه فى بلاد الافرنج ، وتعودى على مشاهدة غيره
يظهر لى غرابة ما أراه أول وهلة ، حين وصولى ، فوعدت ، ووفيت .

هذا حاصل ما كان لخصته (٣) ، حسب الامكان ، فلم يبق
علينا حينئذ الا ذكر خلاصة هذه الرحلة ، وما دقت فيه النظر
وأمعنت فيه الفكر ، فأقول : ظهر لى بعد التأمل فى آداب الفرنساوية
وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شيها بالعرب منهم للترك ، ولغيرهم
من الأجناس ، وأقوى مظنة القرب بأمور ، كالعرض والحرية

(١)

La Ville d'Orgon

(٢) فى الأصل : « مستوفيا » .

(٣) فى الأصل « لخصت » .

والافتخار ، ويسمون العرض شرفا ، ويقسمون به عند المهمات ، وإذا
عاهدوا عاهدوا عليه ، ووفوا بعهودهم ، ولا شك أن العرض عند
العرب العرباء أهم صفات الانسان ، كما تدل على ذلك أشعارهم ،
وتبرهن عليه آثارهم . قال الشاعر :

وانى لحلو للصديق ، واننى	لمر لذي الأضغان أبدي له بغضى
وانى لأستغنى فما أبطر الغنى	وأبذل ميسورا لمن يبتغى قرضى
وأعسر أحيانا فتنفذ عسرتى	وأدرك ميسور الغنى ومعى عرضى

وهتك العرض : هو ما يعبر به عندهم بالسبة والعار ، قال
الشاعر :

تعيرونا أنا قليل عدادنا (١)	فقلت لها ان الكرام قليل
وماضرونا أنا قليل وجارنا	عزيز ، وجار الأكثرين ذليل
يقرب حب الموت آجالنا لنا	وتكرهه آجالهم فتطول
وانا لقوم ما نرى القتل سبة	إذا ما رأته عامر وسلول
إذا سيئه منا خلا قام سيئه	قؤول لما قال الكرام فعول
سلى ان جهلت الناس عناو عنهم	فليس سواء عالم وجهول

ولا يظن بهم أنهم لعدم غيرتهم على نسائهم لأعرض لهم فى ذلك،
حيث ان العرض يظهر فى هذا المعنى أكثر من غيره ، لأنهم وان فقدوا
الغيرة ، لكنهم ان علموا عليهن شيئا كانوا شر (٢) الناس عليهن ،
وعلى أنفسهم ، وعلى من خانهم فى نسائهم ، غاية الأمر أنهم يخطئون
فى تسليم القيادة للنساء ، وان كانت المحصنات لا يخشى عليهن شيء
كما قال الشاعر :

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره وترضى اياها البعل حين يؤوب

(١) الرواية المشهورة : « جديتنا » .

(٢) فى الأصل « أشر » .

قال الزمخشري ، عند قوله تعالى : حكاية عن قول العزيز :
« واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين » : ما كان العزيز
الا حليما ، وقيل : انه كان قليل الغيرة قال الشيخ أثير الدين أبو حيان ،
فى تفسير هذه الآية الكريمة : وتربة مصر اقتضت هذا يعنى قلة
الغيرة ، وأين هذا مما جرى لبعض ملوك بلادنا ، وهو أنه كان مع
ندمائه الخصيصين به فى مجلس أنس وجارية تغنى وراء الستارة
فاستعاد بعض جلسائه بيتين من الجارية ، وكانت قد غنت بهما ،
فمالبت أن جىء برأس الجارية مقطوعا فى طشت ، وقال له الملك
استعد البيتين من هذا الرأس ، فسقط مغشيا عليه ، ومرض مدة
حياة ذلك الملك ! أقول : وأين غيرة هذا الملك من غيرة عبد المحسن
الصورى على محبوبه ، حيث قال :

تعلقته سكران من خمرة الصبا	به غفلة عن لوعتى ونحيبى
وشاركنى فى حبه كل ما جد	يشاركنى فى مهجتي بنصيب
فلا تلزمونى غيرة ما ألفتها	فان حبيبى من أحب حبيبى

انتهى « سكردان ابن حجلة صاحب ديوان الصبابة » وبالجمل
فسائر الأمم تتشكى من النساء ولو العرب ، قال الشاعر :

لقد باليت مظعن أم أوفى ولكن أم أوفى لا تبالى
وقال آخر :

فان تسألونى بالنساء فاننى	بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله	فليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المال حين علمنه	وشرح الشباب عندهن عجب

وحيث ان كثيرا ما يقع السؤال من جميع الناس على حالة
النساء عند الاقربى كشفنا عن حالهن الغطاء ، وملخص ذلك أيضا :

أن وقوع اللخبطة (١) بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن ، بل التربية الجيدة والحسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك في المحبة والالتئام بين الزوجين . وقد جرب في بلاد فرنسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسويات الى الرتبة الوسطى من الناس دون نساء الأعيان والرعاع ، فساء هاتين المرتبتين يقع عندهم الشبهة كثيرا ، ويتهمون في الغالب ، فكثيرا ما كانت تتهم الفرنسيات نساء العائلة الملكية المسماة «البربون» ، على أن مما يقوى كلامهم ما وقع لزوجة ابن ملك فرنسا المعزول التي هي أم «الدوك دوبردو» الذي خلع عليه جده المملكة بعد عزله ، ولم يقبله الفرنسيات ، وقالوا ان هذا الولد ابن زنا ، فان أمه ولدت ولدا آخر من الزنا ، وادعت أنها تزوجت سرا ، فانكسر بذلك ناموسها ، وبعد أن كانت تطلب مملكة فرنسا لابنها الأول ، وكانت آخذة في أسباب توليته ، وكان يخشى منها وقوع شيء في المملكة - سقطت من الأعين ، وبعد أن وقعت في يد الفرنسيات ، وكان يظن هلاكها ، تركوا سبيلها قائلين : انها صارت مهملة ورجعت الى أهلها بولدها الأخير .

ومن أغرب ما وقع ببلاد الافرنج في هذا الأمر : أن ملك الإنكليز « جرجس الرابع » اتهم زوجته بالفاحشة بعد أن عهد منها ذلك المزار العديدة ، واشتهرت بذلك عند الخاص والعام ، لكونها كانت تسافر ببلاد الافرنج مع من تريد ، ولها في كل محل عشاق ، فلما رفع أمرها عند شرعهم ، وأقيمت الدعوى كما ينبغي ، وقصد باثبات زناها طلاقها ليتزوج بغيرها ، فلم تثبت أمور كافية في الطلاق ، فحكم القاضي بإيقائها على عصمته قهرا عنه ، فبقيا متفرقين ، ولكن لم يتزوج غيرها ، وذاع أمرهما وشاع ، ولكن في الحقيقة وان كان يعتقد فيها ذلك الا أنه بمجرد القرائن لا بالمشاهدة ، الا لانتلم

(١) لعله يريد الاختلاط .

عرضه ، فمادة العرض التي تشبه الفرنسية فيها العرب هو اعتبار المروءة وصدق المقال ، وغير ذلك من صفات الكمال .

ويبتذل في العرض أيضا العفاف ، فانهم تقل فيهم دناءة النفس ، وهذه الصنف من الصفات الموجودة عند العرب ، والمركوزة في طبائعهم الشريفة ، وان كانت الآن قد تلاشت فيهم ، واضمحلت فانما هو لكونهم قاسوا مشاق الظلم ، ونكبات الدهر ، وأحوجهم الحال الى التذلل والسؤال ، ومع ذلك فقد بقي منهم من هو على أصل الفطرة العربية ، عفيف النفس على الهمة ، كما قال الشاعر :

فدعني ونفسي والعفاف فاني أخذت عفا في في حياتي ديدني
وأصعب من قطع اليدين على الفتى صنيعة بر نالها من يدي دني

وأما الحرية التي تتطلبها الافرنج دائما فكانت أيضا من طباع العرب في قديم الزمان ، كما تنطق به المفاخرة التي وقعت بين « النعمان بن المنذر » ملك العرب ، « وكسرى » ملك الفرس .

وصورتها : أنه قدم النعمان على كسرى ، وكان عنده وفود الروم والهند والصين والعجم والترك وغيرهم ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم وعماراتهم وحصونهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ، ولم يستثن فارسا ولا غيرها .

فقال كسرى ، وقد أخذته الغيرة : يا نعمان ، لقد فكرت في العرب وفي غيرهم من الأمم ونظرت في حال من يقدم على من الوفود ، فوجدت الروم لها حظ في اجتماع ألفتها ، وعظيم سلطانها وكثرة مدائنها ، ووثيق دينها .

ورأيت الهند شهيرة الحكماء طيبة الثراء ، كثيرة الأنهار ، والبلاد والثمار ، عجيبة الصناعة ، مروقة الحسان ، معمورة بالأهل .

وكذلك الصين عجيبة في اجتماعها ، وكثرة صنائع أيديها ،
وهمتها في الحروب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها .

وكذلك الترك مع ما هم عليه من سوء الحال في المعاش ، وقلة
الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن
والملايس ، فإن لهم بعد ذلك ملوكا تضم قاصيهم ، وتدبر أمورهم .

ولم أر للعرب شيئا من ذلك من خصال الخير في أمر دين
ولا دنيا ، ولا حرمة ولا قوة ، ولا عقد ، ولا حكمة ، مع ما يدل على
تدانيها وذلها ، وضعف همتها ، بحالهم التي هم بها مع الوحوش
النافرة ، والطيور الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم
بعضا من الحاجة . قد حرموا من مطاعم الدنيا ومشاربها وملايسها
ولهوها ولذاتها ، وأعظم طعام ظفروا به لحوم الإبل التي يعافها كثير
من الطيور والسباع ، لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها ، وإن
قرى (١) أحد ضيفا اعتدها مكرمة ، وإن أطعم لقمة عدها غنيمة ،
تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما عدا هذه التلويحية
التي أسس جدي اجتماعها ، وشده مملكتها ومنعها من عدوها ، ليجري
له ذلك إلى يومنا هذا ، فإن لها مع ذلك آثارا وحصونا وأموالا تشبه
أموال بعض الناس . لكني أراكم لا تسكتون على ما بكم من الذلة
والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخرون ، وتريدون أن تنزلوا فوق
مراتب الناس .

فقال النعمان : أصلح الله الملك ، صدقت إن هذه الأداة نسمو
بفضلها ، وبِعَظَم خطبها ، وعلو درجتها ، إلا أن عندي جوابا في كل
ما نطق به الملك من غير رده عليه ، ولا تكذيب له ! فإن أمنتني من
الغضب مما أتكلم به فعلت .

(١) في الأصل « أقرى » .

قال كسرى : [تكلم] وأنت آمن ، فقال النعمان : أما أدتك
فلا تنازع في الفضل لموضعها التي هي به من عقولها وأخلاقها ،
وبسطة محلها ، وبحبوحة عزها ، وما كرمها الله تعالى به من ولايتك
وولاية آبائك وأجدادك ، وأما الأمم التي ذكرت فما من أمة الا فضلتها
العرب بفضلها .

قال كسرى : لماذا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن
وجوعها وذمتها وبأسها ورياستها وسخائها وحكمة أسنتها ، وشدة
عقولها ووفائها .

فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك وأجدادك الذين
فتحوا البلاد ، ووطئوا العباد ، وأقاموا الملك ، وقادوا الجيوش ، ولم
يطمع فيهم فيهم طامع ، ولم يزالوا عندهم محترمين ، ولا نال أحدا منهم
نائل ، بل حصونهم ظهور خيولهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم
السماء والى جانبهم السيوف ، وعدتهم السقف ، اذ غيرها من الأمم ،
انما عزها بالحجارة والطين والجزائر والبحور والقلاع والحصون .

وأما حسن وجورها وألوانها ، فقد يعرف بذلك فضلهم على
الهند المحترفة ، والصين المتجمشة ، والترك المشوهة ، والروم المقترعة
الوجوه .

وأما أنسابها وأحسابها : فليس أمة من الأمم الا وقد جهل
أباؤها وأصولها ، وكثير من أولها وآخرها ، حتى ان أحدهم يسأل
عمن وراء أبيه فلا ينسب ، ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب
الا ويسمى آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسابهم . وحفظوا بذلك
أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا ينسب الى غير نسبه
ولا يدعى الى غير أبيه .

وأما شجاعته وسخاؤها : فان أدناهم رجلا يكون عنده البكرة
والناب ، عليها بلغته وحمولته وشبعه وريه ، فيطرقه الطارق الذي

يغتذى بالفلذة ، ويجتزىء (١) بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج له عن دنياه كلها فيما يكتسبه من حسن الأجدوثة وطيب الذكر والثناء .

وأما حكمة السنن : فإن الله تعالى أعطاهم أشعارا ، وروثا كاملا ، وحسن وزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالإشارة وضربهم الأمثال : وإلا غتتهم في الصفات ما ليس من السنة الأجناس .

ثم إن خيولهم أفضل الخيول ، ونساءهم أعف النساء ، ولباسهم أحسن اللباس ، ومعادنتهم الذهب والفضة ، وأحجار جبالهم الجزع ، ومطايهم التي لا يبلغ إلا على مثلها سفر . ولا يقطع إلا بمثلها بلد قفر .

وأما دينها وشريعته ، فإنهم متمسكون به أعظم تمسك ، وإن لهم أشهراً حرماً ، وبلداً محرماً ، وبيتاً محجوجاً ، ينسكون فيه مناسكهم ، ويندبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل فيه قاتل أبيه وأخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره منه وإدراك رغمه فيه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله عن تناوله إياه ، احتراماً لذلك البيت وتشريفاً له .

وأما وفاؤهم : فإن أحدهم يلحظ اللحظة ، فهي عقد لأهلها ، لا يرجع عما أضمره في نفسه حتى يبلغه ، وإحدى يرفع عوداً من الأرض ، فيكون رهناً بدينه فلا يطلق رهنه ولا يخفر ذمته ، خوفاً من الله تعالى ، وإن أحدهم يبلغه أن أحداً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره ، فيمنع عنه عدوه ، ويحميه منه ولو تفنى قبيلته ، أو تلك القبيلة التي استجار عليها ، وذلك لما أخفر من جواره ، وإن أحدهم ليبلغ إلى المحروم ، والمحدث عنه ، بغير معرفة ولا قرابة فينزلونه عندهم ، وتكون أنفسهم وأموالهم دون ماله .

(١) في الأصل « يقتدى بالعادات ، ويجتزىء » وهو تحريف .

وأما قولك أيضا الملك ، حفظك الله : انهم يقتلون أولادهم من الحاجة فانما بفعله من فعله منهم زغم أنفه حذرا من العار ، وخيفة وغيرة من الأزواج .

وأما قولك أيها الملك : ان أفضل طعام ظفروا به لحوم الابل على ما وصفت منها فما تركوا مادونها الا احتقارا له ، فعمدوا الى أجلاها وأفضلها ، فكانت مراكبهم ومطاعمهم ، من أنها أكثر البهائم لحوما ، وأطيبها شحوما ، وأرقها ألبانا ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وانه لاشيء من اللحوم يفاخر لحمها الا استبان فضلها عليه .

وأما محاربتهم وأكلهم بعضهم بعضا ، وتركهم الانقياد الى رجل واحد يسوسهم ويدبر أمورهم ، فانما يفعل ذلك من الأمم من علمت الضعف من أنفسها ، وتخوفت من نهوض عدوها عليها ، فانهم يحتاجون الى ملك ، يدبر أمرهم ، ويكون رجلا من أعظمهم شأنا وقدرًا ، ويكونون معترفين بشرفه على سائرهم فينقادون اليه بأزمتهن ، وينقادون الى أمره .

وأما العرب : أيها الملك ، فان كثيرا فيهم ، لعظم كرمهم ووقائهم ، ودينهم ، وحكمة أسنتهم ، وسخاء نفوسهم يقولون : انهم ملوك بأجمعهم مع رفعتهم ، فلا ينقاد أحد الى الآخر فانهم أشراف .

وأما اليمن ، التي وصفها الملك : فان آباءك وأجدادك أعلم بصاحبها لما أتاه ملك الحبشة في مائتي ألف ، وتغلب على ملكه وجاء الى بابك وهو مستصرخ ذليل حقير مسلوب فلم يجره أحد من أجدادك ولا آبائك ، فاستجار بالعرب فأجاروه ، ولولا ما وتر به من بلية العرب لما الى نقص ، ولم يرجع الى محله ، ولولا أنه وجد من يجيد معه الطعان بقتل الأحرار ، وتبديد شمل الكفار ، وبذبح العبيد الأشرار لم يرجع الى اليمن .

قال فعجب كسرى مما جاء به النعمان ، ثم قال له : انك لأهل لموضعك من الرياسة ولأهلك ولأهل اقليمك ، ولما هو أفضل منه

ثم كساه وأنهم عليه وأعطاه أشياء جزيلة ثم سيره الى موضعه من
الحيرة ، ثم بعد سير اليه وقتله .

والتنوخية فرقة من اليمن ، وقال المتنبي على لسان بعضهم :

قضاة تعلم أنى الفتى الـ	ذى ادخرت لصروف الزمان
ومجدى يدل بنى خندف	على أن كل كريم يمان
أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء	أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
أنا ابن الفياقى أنا ابن القوافى	أنا ابن السروج أنا ابن الرعان
طويل النجاد طويل العماد	طويل القناة طويل السنان
حديد المحاذي حديد الحفاظ	حديد الحسام حديد الجنان
يسابق سيفى منايا العباد	اليهم كأنهم فى رهان
يرى حده غامضات القلوب	إذا كنت فى هبوة لا أرانى
سأجعلك حكما فى النفوس	ولو ناب عنه لسانى كفانى

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : حضر رجل من أهالى
مصر الى عمر ابن الخطاب ، وجعل يشكو من عمرو بن العاص ، فقال :
يا أمير المؤمنين ان هذا مقام العائذ .

فقال عمر : لقد عدت فما شأنك ؟ قال تسابقت بفرسى أنا
وابن عمرو بن العاص فسبقتة ، فحمل على بسوط فى يده ، وجعل
يقنعنى بالسوط ، ويقول لى أنا ابن الأكرمين : وبلغ ذلك لعمرو
بن العاص فعشى أن آتيك لأشتكى ولده وحبسنى فتقلت من الحبس ،
وها أنا قد آتيتك .

قال : فكتب كتابا : من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ،
انه اذا آتاك كتابى هذا فاحضر الموسم يعنى الحج أنت وابنك . ثم
التفت الى المصرى ، وقال له : قم حتى يأتى غريمك ، فلما حضر
عمرو ابن العاص وابنه الحج وجلس عمر بن الخطاب وجلسوا بين
يديه ، وشكى المصرى كما شكى أول مرة ، فأومأ عمر بن الخطاب :

وقال له خذ الدرة وانزل بها عليه : قال : فدنا المصري من ابن عمرو بن العاص ، ونزل عليه بها .

وعن أنس قال : والله لقد ضربه ، ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم يزل يضربه حتى استحببنا أن لا يضربه ، وذلك من كثرة ما يضربه ، وعمر رضى الله عنه يقول اضرب ابن الأكرمين .

قال عمرو بن العاص : قد شفيت يا أمير المؤمنين ، قال عمر بن الخطاب للمصري أنزع عمامته ، وضع الدرة على صلعة عمر ، فمخاف المصري من ذلك ، وقال يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربتي فما لي أضرب من لم يضربني .

فقال عمر رضى الله عنه : والله لو فعلت لما منعك أحد .

ثم التفت رضى الله عنه ، وقال لعمرو بن العاص : متى استعبدتم (١) الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم (٢) ، أحرارا . انتهى .

فمنه يفهم أن الحرية أيضا من طباع العرب من قديم الزمان .

هذا ، ولا ينبغي لنا أن نختم هذه الرحلة من غير أن نشكر محاسن من ساعد الوالى فى نجاح مقصوده من ترتيب أمور التلامذة وتعليمهم بمدينة باريس محب البلاد المصرية وأهلها «الخواجه جومار» فانه يسعى بهمته ورغبته فى تنفيذ مقصد الوالى ويسارع فى المصلحة بلا انكار فكأنه من أبناء مصر البارين بها فهو جدير بأن ينظم فى سلك المحبين .

ومما يدل على ذلك غاية الدلالة ما ذكره فى روزنامته ، التى ألفها ، لا استعمال مصر والشام سنة ألف ومائتين وأربع وأربعين من الهجرة ، فانه ذكر فيها أنه ان صدرت له ارادة [من الوالى] ليؤلفن

(١) فى الأصل « متى استعبدت من ناس » .

(٢) فى الأصل « وقد ولدتهم أمهم » .

كل عام روزمانيه بهذا الوضع ، ليعين على حسن تمدن الايلات المصرية ، فمن جملة ما قاله في مقدمته أنه يذكر في هذه الروزنامة عدة أمور :

الأمر الأول : الدلالة على تقدم الحرف والصنائع اللازمة لمصر من أولها لآخرها .

الثاني : تجارة أهالي أوروبا وآسيا وأفريقية كقوافل بلاد البربر ودارفور وسنار وبلاد الحجاز ، ومقابلة الأقيسة والمكايل والموازين المختلفة باختلاف البلاد المستعملة هي فيها .

والثالث : ذكر أمور الزراعة فإنها كانت سببا في سالف الأعصر في غنى أهل مصر ، فلهذا ينبغي أن تكون أول ما تهتم به الدولة في مملكة مصر الطيبة التربة والزراعة كثير الفروع المهمة ، فمن ذلك علم توفير المصايف الخلائية ، ويتشعب عنه اصلاح المزارع، والمروج المستحدثة المدبرة وتتميم زراعة القطن والنبيلة والعنب والزيتون والتوت واستخراج دقيق النيلة ، واستخراج أنواع كثيرة من الزيوت ، ومعرفة تربية النحل ودود القز ، ودود الصباغة ، وتعهده الحيوانات الأهلية ، وتحسين الحيوانات البلدية بعزلها عن غيرها كالخيل والمعز ، وحيوانات الأصواف ، وجلب البهائم البرانية ومعرفة طب البهائم ، ومعالجة أمراضها كمرض « السواف » وحفظ الحبوب من السوسة ، وغرس الأشجار ، وترتيبها بحافات الطرق ، وخدمة البساتين وسائر الأبنية الخلائية المناسبة لمصالح الزراعة . وفي مادة الزراعة نذكر الترع والخلجان المعدة لسقي الأراضي وللأسفار ، وكذلك نذكر الطرق والجسور والقناطر في السهول والجبال المعدة لتوصيل المياه ، فهذه كلها تذكر في الفلاحة .

الرابع : نتكلم على أمور مختلفة من علوم الطبيعة ومن علم المواليد الثلاثة ، ومن العلوم الرياضية وهنساك نتكلم على المادة

المغناطيسية التى تستعملها الأطباء فى معالجة الشلل ونحوه ، وكذلك القوة الكهربائية ، والحرارة الكروية ، والحوادث السماوية ، والندى ، والمطر الذى يحدث بين المدارين ، وكذلك نتكلم على أحجار الصواعق ، وعلى جبال النار المسماة بالبركانية ، وعلى الآلات الطبيعية كميزان الزمان ، وميزان الحر ، وميزان الرطوبة ، ووقاية الرعد ، والنظارات الملكية ، والنظارات المعظمة للأشياء الدقيقة التى لا يدركها النظر .

ونتكلم أيضا على علم المعادن واستخراجها وقطع الحجارة من مقاطعها ، وعلى علم الحشائش الطبية ، والنباتات المستعملة فى الفنون والصنائع ، وعلى البهائم النافعة ، وعلى علم الجبر والمقابلة والهندسة .

الأمر الخامس : يشتمل على جملة فروع من علم توفير المصاريف وسياسة الدولة ، وعلى تنبيهات على علم أحوال الممالك والدول ، وعلى سبب ثروتها وغنى أهلها ، وعلى أحوال المعاش والمعاد وعلى ولادة الذكور والاناث فى كل بلدة من البلاد ، وعلى الإدارة الملكية ، وعلى الأصول العامة المستعملة أساسا لسياسات الأفرنج ، وهى الحقوق العقلية والحقوق القانونية والحقوق البشرية ، أى الحقوق التى للدول بعضها على بعض .

السادس : سياسة الصحة العمومية والخصوصية ، وفى ذلك نتكلم على تلقيح البقرى للجسدى ، وعلى الطاعون ومعالجته ، وعلى الأمراض والعوارض العامة وعلى بعض تشريح السباع : نذكر فيه جملة تعليمات مختلفة من مسائل أدبية وفلسفية ولغات وعلوم مثل علم الفصاحة ، وفيه نتكلم أيضا على المكاتب والمدارس فى البلاد المختلفة ، ونبذات فى تواريخ البلاد خصوصا مصر ، وعلى حكايات ونوادير من غرائب الآداب والبلاغة الأفرنجية والمشرقية ، وكذلك نذكر شيئا من علم المنطق ، ونبين الوسائط

المسهلة المعلمة بالايجاز للقراءة والكتابة والحساب ، وطرق تعليم هذه الأشياء فى أقرب زمن لسائر العامة .

الثامن : نبحث فيه عن عدة أشياء متنوعة ، وفيه نذكر أخبار التجارة والسفن البحرية واقامة العربات العامة وتحسين الطرق والترع والخلجان والقناطر المعلقة ، والاشارة المسماة تيلغراف - يعنى اشارة الأخبار - وجميع الأشغال المتجددة عند الافرنج ، ونضم لذلك لوحات أشكال لكمال الفائدة ، وكذلك نرسم خرائط جغرافية وصور النباتات والحيوانات التى تنقل من البلاد الغربية وتربى فى مصر ، ونذكر كثيرا من الأمور التى تتجدد على تداول الأزمان . وبالجمله فنذكر نبذا صغيرة متشعبة من أصول عظيمة ومستفادة من أفواه الثقات سهلة الفهم لسائر الناس ، ولا نستعير منها شيئا من صعب الكتب انتهى كلامه . ولم ينجز ما وعده به لأنه علق ذلك على الارادة السنوية ولم يصدر له أمر الى الآن . وبالجمله فهو من المولعين بحب مصر ظاهرا وباطنا ومن الراغبين فى خدمة الوالى حبا له ولدولته .

وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى فى ذكر حوادث السفر لتلك الجهة التى لا ينكر معارفها الا من لا انصاف عنده ولا معرفة له ، قال الشاعر :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

والفضل كالشمس لا يخفى على أحد
الا على أكمه عما يراه عمى

ولا ينبغى أن يمنع ذو الحق حقه ، كما قال الشاعر فى هذه الآبيات المملوءة من الحكمة :

إذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصه

وان ناصح منك يوما دنا
وان باب أمر عليك التوى
وذو الحق لا تنتقص حقه
ولا تذكر الدهر فى مجلس
وقص الحديث الى أهله
ولا تحرصن قرب امرى
وكم من فتى ساقط عقله
وأخر تحسبه أنسو كا

فلا تنأ عنه ولا تقصه
فشاور لبيبا ولا تعصه
فان القطيعة فى نقصه
حديثنا اذا كنت لم تحسه
فان الوثيقة فى قصه
حريص مضاع على حرصه
وقد يعجب الناس من شخصه
ويأتيك بالأمر من فسه

ولا أحد يخلص من قال الناس وقيلهم ، كما قال الشاعر :
ومن ذا الذى ينجو من الناس سالما وللناس قال بالظنون وقيل

وحيث كان العمل بالنية ، والمدار على حسن الطوية • فلا معول
على من لم يكن تير السياسة • ساطع الكياسة ، ولا اكتراث الا بمن
رقى رتبة عليه فى الرسوم والقوانين وتشبث بالشرعية ، وكان فيها
ذا رياسة • ودرى أن القصد انما هو حس أهل ديارنا على استجلاب
ما يكسبهم القوة والبأس ، وما يؤهلهم لاملأئهم الأحكام على هؤلاء
الناس •

وبالجملة فنحن الآن على ما كان عليه الأمر فى زمن الخلفاء
العباسية ، كما قال الشاعر :

وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه
وأول الغيث قطر ثم ينهمل
ولبعض أقاربى :

يا من غدا معجبامما اقترحت وقد
أما رأيت اذا شمس الضحى غربت
وقال آخر :

أضحى يروم مقال العاذل اللاحى
يلجأ الحريص الى ضوء بمصباح

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له فى الأرض آثار
وعلى كل حال فأرجو ممن نظر فيه أن يتصفح بجملته ، ليكون
على بصيرة مما يقول ، فان المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل منه ،
ولا أقول الا كما قال الشاعر :

قاليك وشيا حاكه فى الطرس ذو باع قصير
واستر اذا عيب بدا والله يعفو عن كثير

تعليق

رفاعة رافع الطهطاوى : المفكر والمعلم

سيرة حياة المعرفة والحرية :

فى شهر أكتوبر من عام ١٨٠١ ، خرجت من مصر حملة نابليون بونابرت ، أول حملة استعمارية على الشرق ترغم على الانسحاب من « مستعمراتها » المسلوقة ، دون شروط . وأخذت الحملة معها فى صندوق من الرصاص جثة كليبر ، خليفة نابليون فى قيادة الحملة وبحكم المستعمرة ، وأول جنرال استعماري تعدمه يد الثورة الوطنية فى الشرق . وأخذت الحملة أيضا كتاب « وصف مصر » الذى وضعه علماؤها ، بينما سلمت للانجليز « حجر رشيد » الذى سيؤدى فك طلاسمه بعد سنوات الى ازالة ستار الغموض والجهل عن أعظم وأعرق حضارات الانسان القديم . ولكن الحملة تركت وراءها روح المقاومة التى أثارته والثقة فى النفس واكتشاف الذات بعد قرون الاستسلام والخنوع والضياع ، كما تركت الحملة وراءها عددا من الرجال الذين صدمهم التفوق الحضارى الذى كانت تمثله فأيقظ التحدى عقولهم . وبعد ذلك بأيام، دخل محمد على القاهرة ، ضمن جيش اعادة السيطرة العثمانية ، لكن يبدأ مغامرته الكبرى بهدف اعادة الروح الى سلطنة العثمانيين وهى المغامرة التى أدت ، على العكس ، الى اعادة الروح لمصر نفسها وللعالم العربى .

ولكن فى منتصف ذلك الشهر نفسه ، ولد رفاعة الطهطاوى ،

(*) عن مجلة الاداب اللبنانية العدد السابع يوليو ١٩٧٧ ، السنة ٢٥ .

فى بلدة طهطا من قلب صعيد مصر • ولم يكن لولادته يومذاك مغزى،
الا انه ولد فى البلدة التى أغرقت بنادق أهلها القديمة سفينة القيادة
لحملة فتح الصعيد التى أرسلها نابليون من القاهرة ، فلم تستطع
أبدا أن تزعم انها فتحته • ولكن ولادته رغم ذلك كانت هى ثالث
الأحداث فى ذلك الشهر التى سمت البداية لتاريخ مصر الحديث •
بل ربما كانت ولادته ، هى الحدث الأكثر أهمية ، اذا نظرنا الى
التاريخ بحثا عن أعماقه الحقيقية وأساسه • فان العمل الذى انجزه
الصيبي الصعيدى فيما بعد هو الذى أعطى المعنى الإيجابى للحدثين
الأولين ، فقد كان على شعب مصر ، الذى دفع الثمن كله أن يكون
هو الذى يصنع بجهد ذلك المعنى ، وان يكون هو الذى يجسده •

يصعب علينا الآن بالفعل ان نتخيل نوع العالم الذى جاءه
رفاعة الصغير يوم مولده • كانت قد مرت ثمانية قرون تقريبا منذ
بدأت سيطرة الأجناس الآسيوية ، المتخلفة حضاريا وثقافيا ، على
مصر والوطن العربى : من الأكراد والشركس والتركمان والمغول
والأتراك • جاءوا قادة عسكريين ، ومماليك وغزاة فاتحين • وكانوا
محاربين عظماء ، ولكنهم كانوا أيضا أصحاب تخلف حضارى وثقافى
عريق • وبحكم سيطرتهم السياسية القائمة على القهر ، وبحكم
غريبتهم عن لغة الثقافة العربية ووصولهم الى السيطرة دون سند أولى
من « مؤسسات » هذه الثقافة – الا الأسانيد الشكلية – وبحكم
قسوتهم الأصلية وقسوة النظام الاجتماعى السائد ، فقد ترابطت
هذه العوامل لكى تفرض على مصر ، وعلى الوطن العربى كله ستارا
من التخلف والفساد العقلى والأخلاقى أصبح فيما بعد مضرب الأمثال •
والقصص التى تروى عن ذلك ليست لها نهاية ، كما ان ذلك التخلف
قد احتوى فى مضمونه نسيانا كاملا للتراث الحضارى والثقافى
العظيم الذى ازدهر حتى قبل وصول « الآسيويين » بعشرات قليلة
من السنين • ان علماء الأزهر الذين ظنوا ان العلماء الفرنسيين
يستخدمون نوعا من السحر فى معامل الكيمياء لكى يخدعوه ، وأقر

مؤرخهم الكبير « عبد الرحمن الجبرتي » بأنهم يأنون أعمالا : « لا نسعها عقول أمثالنا » هؤلاء العلماء كانوا جديرين بأن يطنوا بعس ابطون بأسلافهم العظماء من الفلاسفة والعلماء العرب ، من أمثال الفارابي وابن سينا أو الكندي أو ابن الهيثم أو البيروني . . هذا اذا اتيح لهم أن يسمعوا عن تلك الأسماء .

ونحن الآن قد نستخدم لغة السجع والتورية اللفظية لكي نصنع بعض الفكاهات . . ولكن هذه اللغة كانت هي اللغة الوحيدة التي يمكن أن يعبر بها من شاء الكتابة من هؤلاء العلماء . ولم تكن هذه اللغة الفقيرة قد استخدمت أبدا ، منذ نحو ألف سنة للتعبير عن شيء من العلوم الطبيعية ، ولا الفلسفة العقلية ، ولا العلوم البحتة - كالرياضة - ولا العلوم النظرية - كالفلك والهندسة . ونظرة واحدة الى المجلدات الأولى من كتاب في التاريخ وضع في هذه السنوات الألف ، تكشف عن التصور الخرافي الذي نقله المؤرخون من كتابات اليهود وغيرهم . ومن بقايا ما عرفوه من حكايات شعبية عن تاريخ شعبهم والشعوب المجاورة . وبعد مئة سنة فقط من موت المؤرخ وعالم الاجتماع الكبير عبد الرحمن بن خلدون . . وضع - عالم - أزهرى كتابا لتعليم أمير من المماليك في مادة - وصف العالم - أو الجغرافيا ، ولكن هذا الكتاب يصلح لأن يكون دائرة معارف لكل الخرافات القديمة عن شكل كوكبنا وما يعيش فيه من أحياء ، ولا يكاد وصف مصر نفسها فيه يكون صحيحا .

أما عن أدوات الموت ، فيكفي أن نتذكر ان الجبرتي قال ان الناس الذين تجمعوا لمشاهدة القتال بين الفرنسيين والمماليك في انبابة : « لما عاينوا القنبر - أي قذائف المدافع - ولم يكونوا عاينوه من قبل ، صاحوا : يا خفي الألف نجننا مما نخاف ، وان الجبرتي أيضا أبدى إعجابه بالعربة الصغيرة ذات العجلة الواحدة التي صنعها الفرنسيون لتسهيل نقل الأتربة . وقال انها - معجزة الناس الفرنسية - وانها - شيء لطيف . .

ولكن هذا العالم كان قد اهتز هزة عنيفة فى السنتين السابقتين على مولد رفاعة • وان هؤلاء الناس الذين استنجدوا بخفى الألفاظ حينما عاينوا القنبر - سبكوا شبابيك الجوامع والبيوت بعد عام واحد لكى يصنعوا مدافع وقنايل ليمنعوا كليبر من العودة للمقاهرة فى ثورتها الثانية ، ونظموا أول مقاومة وطنية مسلحة وسرية ضد السلطة الاستعمارية انتهت بقتل كليبر نفسه بعد أيام ، واستمرت لكى تعزل ولاية السلطان الذين جاؤوا من الاستانة واحدا بعد الآخر وارغمت السلطان بالثورة على تعيين الوالى الذى ارادته قيادة المقاومة من نفس مشايخ الأزهر الذين سحرتهم معامل الكيمياء واستصغروا عقولهم أمامها قبل عامين اثنين فقط •

كان بعض هؤلاء المشايخ قد اكتشف معنى الحرية ومعنى ان تحكم الأمة نفسها بنفسها ، ومعنى أن تكون الأمة منظمة تدافع عن نفسها بالسلاح • وقد تكرر هذا الدفاع أيام حملة فريزر فى رشيد والاسكندرية • وتحت نفس القيادة التى شجعت محمد على لكى يقاوم الغزوة الانجليزية ولا يهرب كما فعل المماليك • واكتشف بعض المشايخ الآخرين قيمة العلم والحضارة • وهؤلاء هم الذين ارتبط بهم رفاعة الشاب حينما وصل الى القاهرة لكى يدرس فى الأزهر وهو فى السادسة عشرة من عمره ، فقيرا يحفظ القرآن وبعض كتب شروح النحو والبلاغة والفقه •

وفى القاهرة يكتشف شيخه الكبير ، وشيخ الأزهر فيما بعد ، حسين العطار الذى كان يجمع فى بيته المع تلاميذه لكى يتباحثوا فيما عرفوه من علوم الفرنسيين ، وأسباب تفوقهم الظاهر على المماليك ، وولعهم بالمعرفة والنظام والنظافة ، واكتشف الشيخ الكبير موهبة تلميذه الشاب • وبينما كان عقل الشاب يتفتح أمام ما يسمعه ، كانت الدولة توطد أركانها • فقد أباد محمد على بقايا المماليك وقضى على أسس النظام الاقتصادى والادارى القديم • واكتشف ان باشوات

الاستئانة سيعملون على خلعه حتى لا يخلق مركزا قويا ينافسهم من القاهرة ، وقرر أن - جيشا قويا - هو ما يمكن أن يحميه • وبمجيء عدد من ضباط جيش نابليون المهزوم في ووترلو ، وعدد من الاقتصاديين والسياسيين اتباع - سان سايهون - الاشتراكي الخيالي الفرنسي ، حصل طموح محمد علي ، على الأفكار العلمية اللازمة لتجسيده خياله - وهو كعسكري لابد أن يفكر في ان بناء الجيش يمكن أن يكون النواة التي ينبغي أن يشيد فوقها وحولها بناء الدولة كلها • ان جيشا حديثا يحتاج الى ادارة وصناعة وعلوم ومدارس واقتصاد حديث ، ولا يمكن أن تنتجه مؤسسات متخلفة ، وبذلك بدأ تجنيده الشباب للجيش • وارسال أفراد قلائل لتلقى العلوم اللازمة لتوسيع هذا الجيش وتغذيته بما يلزمه وتغذية الدولة التي ستنفق عليه وترسله في الحروب المطلوبة منها ، أو الحروب التي ستفرض عليها •

ويكتشف رفاة ، مع الفقر واحتياجه للرزق المنتظم الذي لا يتيح له التدريس في الأزهر ، يكتشف أهمية الالتحاق بوظيفة في هذه المؤسسة الجديدة التي ستبنيها الدولة ، والتي ستبني هي الدولة بدورها •

ويصبح رفاة ، الأزهرى الذكي ، تلميذ حسن العطار الذي تفتحت أفاق خياله وعقله بأحاديث أستاذه عن حضارة الغرب ، يصبح موظفا في الدولة الجديدة ، اماما وواعظا في احدى وحدات الجيش الجديد • ومن هنا تبدأ رحلة الخلق الجديد •

لقد كان من الممكن أن يعود رفاة الطهطاوي من باريس الى القاهرة مثلما ذهب ، مجرد امام وواعظ في احدى وحدات الجيش ، وكان يمكن أن يعود ، حتى بعد انضمامه الى البعثة كدارس وليس كمجرد امام وواعظ ، كواحد منها ، وواحد من الذين درسوا معه ومن بعده في عواصم أوروبا ، فيتحول الى مجرد اداة تكتيكية متوسطة

الأعداد ، تؤدي خدمة معينة للجيش محمد علي ودولته ثم تنتهي مثلما انتهت دولة محمد علي وانتهى جيشه بعد هزيمته أمام القوى الأوروبية التي أفرعها تقدمه فابتذلت ضده وضد مصر ، أو ضد عمله على انعاش السلطة العثمانية في الحقيقة .

ولكن رفاة ، يقدم لنا نموذجا مثاليا للدور الذي يمكن أن تلعبه العبقورية الفردية في التاريخ : العبقورية التي تكتشف المغزى الحقيقي لأحداث عصرها وتيار تلك الأحداث ، وتكتشف واجبها في استخلاص كل ما هو ممكن من ذلك التيار لصالح قوى التقدم الحقيقية والأصيلة .

لقد انتهت « أسطورة » محمد علي بهزيمته واجباره على قبول شروط أوروبا وباشوات السلطنة المتواطئين ضده ، وجاء بعده وبعد موت ابنه إبراهيم باشا ، حفيده الخديوي عباس ، صورة من الولاة القدماء تخلفا وجهلا وقسوة وغباء وحرصا على التخلف والجهل والغباوة ، وتغلق مدرسة الألسن وكل ما انشأه رفاة وتلامذته من المدارس ومؤسسات الدولة المتمدنية التي تحايّلوا لخلقها مستفيدين من طموح محمد علي ، ومن الضرورات الى خلقها وفرضها على الدولة وعلى المجتمع كله ذلك الطموح .. وينفى رفاة الى السودان .

فكيف كان يمكن أن تبدو أسطورة محمد علي ، الا لونا من الذكريات يتبادلها المشايخ والموظفون والضباط القدماء المسرحون من الجيش المتضائل .. لولا الكتب الألف التي كان رفاة وتلامذته قد نقلوها الى العربية في كل الفنون والعلوم وطبعوها ، فوزعت بين مئات البيوت وألوف الأيدي ..

ولم يعد في وسع الخديوي المتخلف الغبي لا ان « يخلقها » كما أغلق مدارس رفاة، ولا أن ينفيها مثلما نفى المعلم الأول الذي اختارها بنفسه وأشرف على ترجمتها ، وراجع الكثير منها ، وتلقى بيديه أول نسخة منها جميعا طوال سبعة عشر عاما ؟ ويتكرر نفس الموقف أثناء

سنوات تحرير الوالى سعيد الذى جاء بعد عباس ، ثم أثناء حكم اسماعيل ، حتى بلغت تلك الكتب أكثر من ألفين .

فبينما كان محمد على يحلم بالامبراطورية • وبكرسى الصدر الأعظم فى الآستانة ، ويحصى النقود التى جمعها جباته بالسياط من فلاحى مصر وتجارها ، وبينما كان يظن أن دولته •• ومن أكبر موظفيها رفاعة نفسه - لا عمل لها الا تصنيع الأسلحة والجنود وجمع النقود •• كان رفاعة يضع الأساس لاستمرار تطور مصر نفسها وبنائها الحضارى الحديث كله •• بصرف النظر عن مصير هذه المغامرة التى ما كان العصر الاستعمارى يقبلها فى المنطقة التى تمثل محور الارتكاز لاستراتيجية الدول العظمى طوال القرن التاسع عشر ، لم يكن محور حلم الباشا هو مصر ، وانما السلطنة العثمانية التى كان التاريخ قد حكم عليها بالزوال ، ولم يكن يبقياها الا منطق توازن القوى فى وسط العصر الاستعمارى ، ولم يكن هم الباشا عظمة الاسلام وانما مجده الشخصى •• أما الشيخ المعلم فكان محور حلمه هو مصر فى المستقبل لأنه تفرغ لتعليمها ولغرس البذور التى لاثموت ولا تتحكم فيها أية معاهدات دولية ولا أية نهايات لمصائر أفراد بعينهم ، وكان همه هو المصريون وحریتهم ورخاؤهم واستنارتهم وحكمهم لأنفسهم وحصولهم على حياة جديدة بالبشر ، يصنعونها بأنفسهم •

كان يمكن فى باريس أن يتعلم اللغة وأن يتقن الترجمة ، وأن يكتفى بترجمة نصوص الكتب المدرسية التى ستلقى فى الفنون العسكرية على ضباط وجنود الجيش طبقا لخطة محمد على وتصور رجاله عن وظيفة هذه البعثة التعليمية والبعثات المشابهة •• ولكن ها هو رفاعة الشاب يحرق أرض المعرفة كلها لكى يعد نفسه للمهمة التى قرر أن يتولاها ، والتى رأى أن التاريخ نفسه يؤذن بإمكانية تحقيقها : مهمة بعث الحياة فى عقل هذه الأمة ووجودها اعتمادا على أصولها بالذات ، وعلى أساس بث الروح الحية فى الإدارة الأساسية

لمصنع الحضارة واستيعابها وهي : اللغة ، حتى تمتلك الأمة في لغتها أسرار تلك الحضارة الحديثة وأوعيتها وما تحتويه .

وفى يقينى أن المعلم الاول ، كان واعيا منذ البداية بما يفعله . وبما يريد انجازه ، ربما نبهه أحد الى ضرورة أن يهتم بكل فروع المعرفة حتى يصبح « مترجما » يترجم كل شىء الى لغته العربية . ولكن من المؤكد أنه هو الذى اختار فروع المعرفة التى يركز اهتمامه عليها . والكتب التى سيشرع فى ترجمتها للاستفادة المباشرة بمادتها ولتطويع اللغة العربية – بمفرداتها وتركيباتها – من أجل أن تصبح قادرة على استيعاب هذه المادة وما يترتب عليها حتما من أفكار . لقد طاب اليه أستاذه الشيخ حسن العطار قبل السفر أن يسجل ملاحظاته ، ولكن رفاعة هو الذى كتب صورة الحضارة والثقافة الغربيتين ، ولخصهما ، ونقدهما ، واكتشف موقفهما الحقيقى من « الشرق » ومن وطنه ، وعرف انهما قد يكونان اداة تصلح لتطوير بلاده ، ولكن من الخطر الاستسلام لهما ، ومن الغباء السعى الى استبدال جوهر وطنه بهما .

وتوحى مختارات المعلم الأول للترجمة ، وموضوعاته للتأليف ، انه اكتشف الحاجات الحقيقية لحياة أمته ، ولعقلها ، اكتشف انها بحاجة الى المعارف العملية وتطبيقاتها ، فاهتم بالرياضة والهندسة والمعادن والادارة والاقتصاد ، ولكنه اكتشف أيضا حاجتها الى تغيير تصورها عن الكون وعن الكواكب الذى تعيش فيه ، وفى هذا سر اهتمامه الشخصى الخاص بالجغرافيا وبالفلك . ولا شك انه توقف كثيرا عند المغزى الذى تدل عليه الحقيقة التى نعرفها عن التطابق بين بداية علوم الفلك والجغرافيا الحديثة وبين بداية عصر النهضة والتحرر الفكرى فى الغرب . فبهذين العلمين حصل الانسان الغربى على « الاحساس » الصحيح بوضع البشر فى الكون . وبشكل هذه الأرض التى يقفون فوقها واستبدلوا التصور الخرافى القديم بشعور

« ملحدى » يقينى جديد يدفعهم دفعا الى مرحلة جديدة من الصراع ضد الطبيعة ، يشعرون فيه بانهم يواجهون أشياء يمكنهم بالفعل معرفتها والوصول اليها ، واخضاعها لاحتياجات الانسان ، وليسوا أمام « مشاغل معلقة فى السماء يسكنها الملائكة كما جاء فى « نهاية الأرب » وفى تعاليم الكنيسة الكاثوليكية قديما ولا يقفون فوق « اسطوانة مستديرة يمسكها تدبير الهى فوق قرن ثور ، ويقال فوق ظهر مسلحفاء يقف أو تقف فوق ظهر حوت يسبح فى بحر الظلمات » . ولاشك أن المعرفة « العلمية » بحقيقة ذلك الوضع والايمان به — يخلقان شعورا مختلفا وحالة عقلية متميزة كل التميز عن الشعور الذى تولده الخرافات الأخيرة .

وهذا الشعور وتلك الحالة العقلية هما ما سعى اليهما المعلم الأول ، لانهما يعنيان « الحرية » والقدرة على الفعل . النتيجة المحتمة للعلم ، بدلا من حالة القهر والعجز التى تخلقها التصورات الخرافية .

والى جانب الجغرافيا والفلك ، اهتم المعلم الأول بالتاريخ وبما يمكن أن نسميه « فلسفة التاريخ » أو « علم الاجتماع » ، أو بنوع من « الانثروبولوجيا » — « علم تاريخ العقائد » . فبعد تصحيح احساس الناس بوضعهم فى الكون وفى كوكبهم ، اكتشف المعلم الأول حاجة أمتة الى تصحيح تصورها عن تاريخ المجتمع الانسانى نفسه أو تاريخ البشر أنفسهم على هذا الكوكب ، ثم الى تصحيح تصورها عن تاريخها ، هى بالذات . ولذلك لم يكتف بترجمة وتأليف الكتب التى تقدم « حقائق » ذلك التاريخ وانما أضاف اليها الكتب التى تكشف معنى تلك الحقائق بوصفها ظواهر موضوعية . . تحكمها قوانين لا سيطر للبشر عليها الا اذا حققوا الوعى بها ، كسائر قوانين العلم التى تتحكم فى سائر ظواهر الطبيعة ، وهى الكتب التى تمنح أمتة التصور الصحيح عن حياة وعقائد وتصورات الأمم الأخرى ، حتى يسود أمتة احساس موضوعى ازاء هؤلاء الآخرين ، ينتج عن المعرفة بحقيقتهم .

بدلاً من التصورات الخرافية التي نجدها أيضاً فى كتب مؤرخى الألف سنة الماضية وعلمائها .

ونظرة الى كتاب الطهطاوى عن تاريخ مصر وتاريخ العرب :
« أنوار توفيق الجليل فى تاريخ مصر وتوثيق بنى اسماعيل » تكشف
أيضاً عن رغبته فى إقامة تصور المصريين عن تاريخهم على نحو صحيح :
انهم أصحاب تلك الحضارة العريقة القديمة التى تطورت حتى التقت
بنهر التاريخ العربى فاستوعب أحدهما الآخر وصارا نهراً واحداً له
« روافد » بعيدة متعددة الأصول ، وان عليهم أن يعيشوا الوعى بهذا
البعد التاريخى لوجودهم « الاجتماعى » حتى يعرفوا أنفسهم والمعنى
الحقيقى لحضارتهم المعاصرة ، وحتى يعرفوا انهم هم الذين صنعوا
تلك الحضارة ، وانهم صنعوها من خلال صراع عظيم ضد عناصر
وعوامل القهر الكثيرة .

وأخيراً نكتشف اهتمام المعلم الأول باللغة ، سواء عن طريق
اثرائها مباشرة بالترجمة ، وإحيائها لكى تتمكن من استيعاب تلك
العلوم والمعارف التى لم تستخدمها أبداً طوال ألف سنة ، والتى
تطورت وتشعبت بشكل هائل طوال تلك القرون العشرة ، أو عن
طريق تحديد المصطلحات العلمية الجديدة وتوحيدها عن طريق وضع
القواميس الخاصة فى نهاية كل كتاب مترجم ، تعديداً للمعانى
وتوحيدها لها فى أذهان من يستخدمون الاصطلاحات فى العمل أو فى
التعليم . وكان المعلم الأول عملياً الى أقصى حد فى هذا المجال ، فكان
يلجأ الى اللهجة العامية لكى يأخذ منها المصطلح الذى يريد إذا لم
تسعه الفصحى ، فإذا لم يجد فى العامية بغيته كتب المصطلح الأوروبى
بالحروف العربية كما هو . وكذلك فى أسلوب التعبير الذى كان قائماً
فى عصره على ضرورة استخدام المحسنات البديعية من سجع وجناس
وتورية . . الخ . .

لقد اكتشف خطورة ذلك القيد الثقيل على العقلية العربية منذ

تعلم الفرنسية فى الشهر الأول من اقامته فى باريس ، وبدأ منذ ذلك الحين، فى الصفحات الأولى من كتابه الأول « تخليص الأبريز » محاولة التخلص من ذلك القيد ، سعيا الى دقة التعبير وتطابقه مع حقائق الأشياء ومع جوهر المعانى التى يريد التعبير عنها .

ان هذا الصراع الكبير من أجل تحرير اللغة، ومن أجل تحريرها من « التقديس » من أجل اثرائها بالمفردات، والمصطلحات وأساليب التعبير ، انما تكشف عن ادراكه لأن اللغة وعاء للثقافة والحضارة جميعا ، وانه دون اعداد هذا الوعاء ، لكى يكون مستعدا للاتساع والتشكيل بأشكال ما يحتويه ، فانه لا أمل فى تطور حقيقى لعقل أمته ، وبالتالى لحياتها .

لقد انتهت مغامرات الباشوات الثلاثة ، محمد على ، ثم سعيد . ثم اسماعيل ، نهايات تتناقض جوانبها بين النفع والضرر ، كما تتناقض مقدماتها بين الخير والشر ، أما مصر فقد فازت بما صنعه أبناؤها ، وعلى رأسهم معلمها الأول الكبير وما حققوه من معرفة وحرية وبنیان مادی ومعنوى ، حضارى وثقافى تقوم عليه حياتهم الجديدة .

وفى ظنى أن هذا البنیان ، وفى جانبه المعنوى الثقافى بالذات، قد كان فى حساب القوى التى كانت تخطط للقضاء على النهضة المصرية لتحويل مصر الى مستعمرة ونقطة حراسة لطريق المواصلات. الامبراطورية فى نفس العصر الاستعمارى. ولا شك ان الأجيال التالية للمعلم الأول ، قد جاهدت لكى تكمل طريقه ، وكان عليها أيضا أن تجاهد ضد ذلك المخطط الذى ارادنا أن نتخبط فى طريق المعرفة والحرية . ولعلنا نستطيع فى إعادة اكتشاف معنى العمل الذى حققه « جدنا الجليل » أن نعود الى طريقه المستقيم .

المعلم الأول :

بطاقة حياة

١٥ أكتوبر ١٨٠١ - يولد فى طهطا ، ويتولى أبوه وإخواله تعليمه الأول بالعلوم التقليدية وعلى الأسلوب الأزهرى .

- ١٨١٧ - يأتى الى القاهرة ويلتحق بالأزهر .

- ١٨٢٢ - التدريس فى الأزهر ، وتدعيم علاقته بالشيخ حسن العطار ، أكبر من أدرك أهمية الجانب الحضارى الذى مثلته الحملة الفرنسية والتحدى الكامن فى هذا الجانب .

- ١٨٢٤ - يلتحق بالجيش الجديد - أكبر مؤسسات محمد على - كامام وواعظ .

- ١٨٢٦ - باريس ، والذهاب إليها اماما لبعثة من ٣٤ طالبا ، نصفهم من أصل مصرى ، لدراسة العلوم الفيزيائية والانسانية ، والاجتماعية المختلفة . وطلبه الانضمام الى البعثة كدارس لا مجرد امام وواعظ . وقرار ضمه الى البعثة لدراسة الترجمة .

- ١٩ أكتوبر ١٩٣٠ - الامتحان النهائى فى ختام الدراسة ، يقدم للجنة الامتحان نصوص ١٢ كتابا أو فصولا من كتب قام بترجمتها خلال سنوات الدراسة الخمس ، تشمل جوانب من علوم التاريخ والتعدين والجغرافيا وعلم الاجتماع والهندسة المدنية وفن القيادة العسكرية والقانون العام وفلسفة القانون والميثولوجيا اليونانية والصحة العامة وتقويم البلدان . . هذا بالإضافة الى المخطوطة الكاملة لكتاب « تخليص الأبريز » الذى يقدم فيه اكتشافه للحضارة الغربية : تاريخها وأصولها ومؤسساتها السياسية والثقافية والاقتصادية والتشريعية والقضائية ، وأدبها وأصول السلوك والعادات

فيها ، وحقوق الأفراد . . ووجبة نظره النقدية والموضوعية في كل ذلك .

— ١٨٣١ — العودة الى الوطن ، وبدء العمل مترجما في مدرسة الطلب تبحت رئاسة مترجم لبناني ، ثم الاشراف على المدرسة التجهيزية « الثانوية » ويعمل على تطوير مناهج الدراسة في مواد : الحساب والهندسة ، ووصف الكون « الفلك » والتاريخ الطبيعي ، والتاريخ الاجتماعي — القديم — والحديث ، والمنطق .

— ١٨٣٣ — الانتقال الى « مدرسة الطوبجية » للمدفعية ، والشروع فورا في اعداد وتنفيذ مشروع اقامة « الجامعة » الاولى في مصر وانشاء « مدرسة التاريخ والجغرافيا » وتدرّس علم الجغرافيا بنفسه ، ثم طلب اعفائه من العمل في مدرسة الطوبجية ، والتخطيط لانشاء « مدرسة الألسن » لتكون النواة الحقيقية للجامعة . وترجمة المجلد الأول من « جغرافية ملطبرون » .

— ١٨٣٥ — افتتاح مدرسة « الترجمة » التي أصبحت مدرسة الألسن « فيما بعد ، وقبول الدفعة الأولى ٢٧ طالبا ، تخرج منهم عشرون والشيخ رفاعة يدرس التاريخ والجغرافيا والمنطق والقانون والفلسفة والأدب ، والاشراف الفني والاداري ، توجيه الطلبة في الدراسة ، واستثمارهم فورا في الترجمة ، والتركيز على العلوم الانسانية، وعلى التاريخ والقانون والفلسفة بالذات ويترجم أول كتاب في تاريخ العقائد وعادات الشعوب ، مع بدء جمع الآثار المصرية واستصدار أمر صيانتها ومنعها من التهريب والضياع .

— ١٨٣٧ — يصدر ترجمته لكتاب « قدماء الفلاسفة » .

— ١٨٨٣ — ترجمة كتاب « تاريخ قدماء المصريين » وترجمة كتاب « المنطق » .

— ١٨٤٠ — انشاء « مدرسة المحاسبة » لدراسة العلوم

تخليص الابريز ج٣ — ٤١٧

الاقتصادية والادارية ، انشاء « مدرسة الادارة الافرنجية » ، للمعلوم
السياسة والادارية العليا •

١٨٤١ - « عودة قليلة الى الوراء » انشاء أقسام متخصصة
للت ترجمة : فى الرياضيات ، والعلوم الطبية الطبيعية ، العلوم
الاجتماعية ، الترجمات التركية وقرار التدريس باللغة العربية لكل
المواد •

١٨٤٢ - الاشراف على صحيفة الوقائع المصرية، وبدء اصدارها
على أساس ان العربية لغتها الأساسية بدلا من التركية •

١٨٤٣ - اضافة وظائف جديدة ، تفتيش عموم مكاتب
الأقاليم ، والاشراف على « الكتبخانة الافرنجية » وعلى عدد من المدارس
العسكرية والمدارس الأولية فى الأقاليم •

١٠ - نوفمبر ١٨٤٨ - وفاة ابراهيم باشا ابن محمد على
وخليفته فى حياته ، ثم وفاة محمد على نفسه بعد أقل من سنة ،
وانفراد الخديو عباس بالحكم •

نوفمبر ١٨٤٩ - عباس يغلق مدرسة الألسن ، ثم المدرسة
التجهيزية بمشورة انجليزية ، ويقصر توزيع « الوقائع » على أصحاب
الوظائف الكبرى •

١٨٥٠ - عباس ينفى رفاة الطهطاوى الى السودان - ترجمة
مسرحية - « تليماك » - فى السودان ، الكفاح من أجل العودة للوطن •

١٨٥٤ - مروت عباس ، وولاية سعيد ، وعودة رفاة من
السودان ، وتعيينه مترجما فى مجلس محافظة القاهرة وعضوا
بالمجلس ، أول مشروعاته « انشاء مكاتب الملة » أى مكاتب الأمة ،
لنشر التعليم بين عامة أفراد الشعب ، أى محو الأمية ، أمية القراءة
والكتابة ، وأمية الفكر وسعيد يتجاهل المشروع •

- ١٨٥٥ - تعيينه وكيلا للمدرسة الحربية ، ثم انشاؤه مدرسة
أركان الحرب ، ثم يحولها الى مدرسة للتثقيف والتعليم الانساني
العام ، بدراسة اللغات الشرقية والأوروبية والتاريخ والجغرافيا ..
النخ الى جانب العلوم التطبيقية الأساسية .

- ١٨٥٥ - منظوماته الشعرية الوطنية التي دعا فيها الى محو
أثار نكسة عباس وبدا النهوض من جديد .

- ١٨٥٦ - اقناع سعيد بتبني مشروع احياء التراث العربي
والاسلامي والبدا بطبع تفسير الرازي للقرآن ، وخزانة الأدب ،
ومقامات الحريري .

- ١٨٦١ - نكسة سعيد ، وفصل رفاعة من العمل حتى وفاة
سعيد بعد اغلاق مدرسة أركان الحرب .

- ١٨٦٣ - وفاة سعيد وولاية اسماعيل ، وعودة رفاعة الى
النشاط . الاشراف على « المكاتب الأهلية » ورئاسة مجلسها ،
والاشراف على تدريس اللغة العربية ، ورئاسة قلم الترجمة الجديد
وترجمة جميع القوانين الفرنسية .

- ١٨٦٨ - اصدار كتابه « أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر
وتوثيق بني اسماعيل » .. أول كتاب مصرى علمى عن تاريخ مصر
القديمة ، وتاريخ العرب قبل الاسلام .

- ١٨٦٩ - اصدار كتابه « مناهج الألباب المصرية فى مناهج
الآداب العصرية » لبحث موضوع « التمدن » وأصوله وأطواره ، مع
اصدار كتابه فى تبسيط علم النحو وقواعد اللغة العربية .

- ١٨٧٠ - انشاء مجلة « روضة المدارس » أول مجلة ثقافية
وفكرية وأدبية فى مصر ، واصدار ملاحقها فى شكل كتب كاملة ، فى

الفلسفة والجغرافيا والصحة العامة وعلم النبات والفلك ، والفقه
الاسلامى ، والأخلاق ، والتاريخ العربى والاسلامى .

– ١٨٧٣ – اصدار كتابه « نهاية الایجاز فى تاريخ ساكن
الحجاز » – عن تاريخ وسيرة الرسول . صدر بعد وفاته فى نفس
العام : ١٨٧٣ .

سامى خشبة

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة (بقلم محققى الكتاب)	٣
تقريظ الشيخ حسن العطار للكتاب	٥٧
فاتحة الكتاب	٥٩
المقدمة	٦٥
الباب الأول : فى ذكر ما يظهر لى من سبب ارتحالنا الى	
هذه البلاد	٦٥
الباب الثانى من المقدمة : يتعلق بالعلوم والفنون المطلوبة،	
والحرف والصنائع المرغوبة	٧٤
الباب الثالث من المقدمة : فى ذكر وضع البلاد الافرنجية،	
ونسبتها الى غيرها من البلاد ، ومزية الأمة	
الفرنساوية على من عداها من الافرنج ، وبيان وجه	
الحكمة فى ارسالنا اليها دون ما عداها من ممالك	
الافرنج	٧٧

٩٢	الباب الرابع من المقدمة : فى ذكر رؤساء هذه السفارة المقصد : فى مدة السفر من مصر الى باريس ، وما رأيناه من الغرائب فى الطريق ، أو مدة الاقامة فى هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية ، والفنون ، والعدل
٩٥	المقالة الاولى
٩٦	الفصل الاول : فى الخروج من مصر ، الى دخول ثغر اسكندرية
٩٨	الفصل الثانى : فى ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة
٩٦	الفصل الثالث : فى ركوب البحر المالح المتصل بثغر الاسكندرية
١٠٤	الفصل الرابع : فيما رأيناه من الجبال ، والبلاد ، والجزائر
١٠٨	الفصل الاول : فى مدة اقامتنا فى مدينة مرسيليا
١١٥	الفصل الثانى : فى الخروج من مرسيليا الى دخول باريس ، وفى المسافة بينهما
١٢٥	المقالة الثالثة
١٢٥	الفصل الاول : فى تخطيط باريس ، من جهة وضعها الجغرافى ، وطبيعة أرضها ، ومزاج اقليمها وقطرها

الصفحة

الموضوع

١٤٧	• • • الفصل الثاني : فى الكلام على أهل باريس
١٧١	• • • الفصل الثالث : فى تدبير الدولة الفرنسية
١٧٥	• • • الكلام على حق الفرنسية المنصوب لهم
١٧٦	• • • كيفية تدبير المملكة الفرنسية
١٧٩	• ديوان رسل العملات الذين هم وكلاء الرعية
١٨٢	• • • • • الوزراء
١٨٢	• • • • • طائفة القضاة
١٨٣	• • • حقوق الناس التى يضمنها الديوان
	خلاصة حقوق الفرنسية الآن بعد سنة ١٨٣١ من
١٨٩	• • • • • الميلاد
	الفصل الرابع : فى عادة سكنى أهل باريس ، وما يتبع
١٩٣	• • • • • ذلك
	الفصل الخامس : فى أغذية أهل باريس ، وفى عاداتهم
٢٠٠	• • • • • فى المآكل والمشارب
٢٠٥	• • • الفصل السادس : فى ملابس الفرنسيين
٢٠٨	• • • الفصل السابع : فى منتزهات مدينة باريس
٢١٨	الفصل الثامن : فى سياسة صحة الأبدان بمدينة باريس
	الفصل التاسع : فى الكلام على اعتناء باريس بالعلوم
٢٢٠	• • • • • الطبية
٤٢٣	

٢٢٤	نصيحة الطبيب
٢٤٤	الفصل العاشر : فى فعل الخير بمدينة باريس . .
٢٤٨	الفصل الحادى عشر : فى كسب مدينة باريس ومهارتها
٢٥٥	الفصل الثانى عشر : فى دين أهل باريس . . .
	الفصل الثالث عشر : فى ذكر تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون والصنائع ، وذكر ترتيبهم ، وايضاح ما يتعلق بذلك
٢٥٩	
٢٨٣	المقالة الرابعة : فيما كنا عليه من الاجتهاد . .
	الفصل الأول : فيما حصل لنا فى أول الأمر من الترتيب فى القراءة وغيرهما
٢٨٤	
٢٩١	الفصل الثانى : فى تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج
	الفصل الثالث : فى ترغيب الوالى لنا فى الشغل والاجتهاد
٢٩٥	
	الفصل الرابع : فى بعض مراسلات بينى وبين بعض من كبار علماء فرنساوية غير « مسيو جوماو »
٢٩٨	
	الفصل الخامس : فى ذكر ما قرأته من الكتب فى مدينة باريس ، وفى كيفية الامتحانات ، وفيما كتبته لى « مسيو جوماو » ، وفيما كتب من خلاصة الامتحان الأخير فى الوقائع العلمية
٣٠٧	

٣١٥	الفصل السادس : فى الامتحانات الى صنعت معى فى مدينة باريس ، خصوصا فى الامتحان الأخير الذى أعقبه رجوعى الى مصر
٣٢١	المقالة الخامسة : فى ذكر ما وقع من الفتنة فى فرنسا ، وعزل الملك قبل رجوعنا الى مصر
٣٢٢	الفصل الأول : فى ذكر مقدمة يتوقف عليها ادراك علة خروج فرنساوية عن طاعة ملكهم
٣٢٥	الفصل الثانى : ذكر التغيرات التى حصلت ، وما ترتب عليها من الفتنة
٣٣٢	الفصل الثالث : كيف كان يصنع الملك فى هذه المدة ، وفيما جرى بعد ذلك من رضائه بالصلح . بعد فوات أوانه ، وفى خلعه المملكة على ابنه
٣٣٦	الفصل الرابع : فيما انحط عليه رأى أهل المشورة ، وفيما ترتب على هذه الفتنة من تولية « الدوق دورليان » ملك فرنساوية
٣٤١	الفصل الخامس : فيما حصل للوزراء الذين وضعوا خطوط أيديهم على الأوامر السلطانية ، التى كانت السبب فى زوال مملكة الملك الأول

٣٤٦	الفصل السادس : فيما كان بعد الفتنة ، وفى سـخـرية الفرنساوية على « شرل العاشر » وفى عدم اكتفاء الفرنساوية بذلك
٣٥٠	الفصل السابع : فيما كان من دول الاقـرنـج بعد سماعهم بعزل الملك الأول
٣٥٣	المقالة السادسة : فى ذكر نبذات من العلوم والفنون المسرودة فى الباب الثانى من المقدمة
٣٥٣	الفصل الأول : فى تقسيم العلوم والفنون على طريق الاقـرنـج
٣٥٥	الفصل الثانى : فى تقسيم اللغات من حيث هى ، وفى ذكر اصطلاح اللغة الفرنسية
٣٦٥	الفصل الثالث : فى فن الكتابة
٣٦٨	الفصل الرابع : فى علم البلاغة المشتغل على البيان ، والمعانى والبديع
٣٧١	الفصل الخامس : فى المنطق
٣٧٥	الفصل السادس : فى المقولات العشر المنسوبة الى « أرسطو »

	الفصل السابع : فى علم الحساب المسمى باللغة
٢٧٨	الأريتمائيقى
	الخاتمة : فى رجوعنا من باريس الى مصر ، وفى
٣٨٤	عدة أمور مختلفة
٤٠٥	رفاعة رافع الطهطاوى : الفكر المعلم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٤٥٠٧

ISBN — 977 — 01 — 3370 — 1

المواجهة

بلغت مؤامرات التطرف والارهاب فى مصر معدلات غير مسبوقة خلال السنة الأخيرة . ولم تعد هذه الظاهرة مجرد تهديد للدولة والنظام الحاكم ، بل أصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية أو فى اقتصاده أو أمنه الاجتماعى والسياسى ومكتسباته الثقافية والفكرية ، وكذلك انجازاته الاقتصادية والمادية . ولا تقل الحرب التى يشنها المتطرفون والارهابيون ضراوة عن أى حرب خاضتها مصر مع أعدائها الخارجيين فى هذا القرن . بل ربما كانت هذه الحرب أشد ضراوة ، لأن أحد أطرافها هم أبناء لنا ، أعمامهم التطرف : فأختاروا العنف سبيلا لفرض إرادتهم وزعزعة استقرار الوطن : واستهدف عنقهم أبناء لنا فى أجهزة الأمن ، أو أخوة لنا من المدنيين المسلمين العزل ، مسلمين وأقباطا .

ان ما تمر به مصر الآن هو مأساة إنسانية وثقافية وحضارية ، وكارثة إقتصادية وسياسية ولذلك أصبح من الضرورى أن ينتفض المثقفون المصريون ، ومؤسسات مجتمعهم المدنى ، للوقوف فى وجه التطرفة ، لاحتواءها ومحاصرتها واحتوائها ، تمهيدا لاقتلاعها تماما .

من أجل هذا تصدر الهيئة المصرية العامة للكتاب بـ
المصريين هذه السلسلة للوقوف أمام هذه الظاهرة بالفكر المسند
الحق الشريف .

Bibliotheca Alexandrina



0344933



الغلاف للفنان : محمود الهندى

بسر رمزى
خمس عشرة قرشاً

